بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله، وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى، وعلى خاتمهم المجتبى. أما بعد ...

فما لا ريب فيه أن كل المشفقين على مسار الأمة، وكل القوى والتيارات الفكرية والسياسية والاجتماعية، متفقون على أن أمتنا تعيش في أزمة حقيقية، تعددت أعراضها، وتنوعت آثارها، وإن اختلفوا في تعيين جوهر الأزمة: ما هو؟

أهي أزمة إيمان وأخلاق، كما يصورها دعاة الدين والفضيلة؟

أم هي أزمة فكر ومعرفة كما يصورها رجال الفكر والثقافة؟

أم هي أزمة حرية سياسية وديمقراطية، كما تصورها القوى المعارضة للنظم الحاكمة؟

أم هي أزمة علم وتكنولوجيا، كما يصورها كثير من دعاة الإصلاح، ومن رجال الفكر أنفسهم؟

لقد ردد كثيرون مع شوقي قوله:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا!

ولكن الدكتور زكي نجيب محمود علق على ذلك بقوله:

لولا خشيتي سوء التأويل لعارضت شاعرنا، لأقول له: وإنما الأمم في يومنا التقنيات ما اطردت وتغلغلت، فإن هم انعدمت علومهم وصناعهم وتقنياتهم،

تخلفوا إلى حيث لا أمل ولا رجاء، اللهم إلا إذا فهمنا الأخلاق بمعنى يجعل منها أن أعرف كيف يُضغط على الأزرار ومتى.

وآخرون قالوا: إنما الأمم الأفكار والثقافة.

وغيرهم قالوا: إنما الأمم الحرية لوطنها، والحقوق لشعبها.

والأولى من ذلك أن ندع وحدانية التعليل والتفسير، إلى الشمول والتعدد.

إن «التفسير الواحدي» للتاريخ وللواقع لم يعد مقبولًا، لأنه يبصر الحقيقة من زاوية واحدة، ويغفل زواياها الأخرى، وهو يبسط الأمور المعقدة والمتشابكة.

إن نهضة الأمم تؤثر فيها الثقافة، كما تؤثر فيها السياسة والاقتصاد والتشريع والتربية وغيرها.

ومهما يكن الاختلاف في تحديد جوهر الأزمة، فأحسب أنه لا يخالف أحد في أهمية دور الثقافة فيها، وخصوصًا الجانب الفكري والأدبي والفني منها. وذلك لما لها من تأثير في الأخلاق والسلوك، ومن تأثير في السياسة والحكم، وتأثير في توجهات الشعوب إلى التقدم أو التخلف، إلى العلم والعمل، أو إلى الكلام والجدل.

فلو صحت ثقافة أمة واستقامت، وتكلمت وتوازنت وسلمت من عوامل التشويه والتحريف - كما هو الأصل في ثقافتنا - لكان لها أثرها البالغ في صحة توجه الأمة واستقامتها وتكاملها وتوازنها. وإذا حدث العكس كانت النتيجة عكسية، لأن الثمرة من جنس الشجرة. وصدق اللَّه إذ يقول: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف:58].

أما قضية «الأصالة والمعاصرة» في ثقافتنا فهي قضية قديمة جديدة.

فمنذ كنا طلابًا صغارًا، ونحن نقرأ ونسمع ونتابع أنباء صراع فكري أدبي محتدم بين تبارين متعارضين يعبر عن أحدهما بـ «القديم»، ويعبر عن الآخر بـ «الجديد».

ومما قرأناه من آثار هذه الحرب التي تسل فيها الألسنة لا الأسنة، وتشحذ فيها الأقلام لا السيوف: كتاب «تحت راية القرآن» أو «المعركة بين القديم والجديد» لأديب العربي والإسلام مصطفى صادق الرافعي، الذي شن فيه الغارة على الدكتور طه حسين وكتابه عن «الشعر الجاهلي».

وفيه سخر الرافعي من هؤلاء «المجددين» الذين يريدون أن يجددوا الدين واللغة والشمس والقمر!

ومما قرأناه شعرًا من آثار هذه المعركة قول أمير الشعراء أحمد شوقي في قصيدته الشهيرة عن «الأزهر» مشيرًا إلى الغلاة من دعاة التجديد، وأعداء القديم:

دع عنك قول عصابة مفتونة يجدون كل قديم أمرِ منكرًا!
ولو استطاعوا في المجامع أنكروا من مات من آبائهم أو عمرا!
من كل ساع في القديم وهدمه وإذا تقدم للبناية قصّرا!
وأتى الحضارة بالصناعة رنّةَ والعلم نزرا، والبيان مثرثرا!

كما قرأنا قول «إقبال» عن هؤلاء المجددين: إن جديدهم هو قديم أوروبا. كما ذكّر هؤلاء بأن الكعبة لا تجدد، ولا تستجلب لها حجارة من الغرب!

واستمرت هذه المعركة بين التيارين المتضادين، ظاهرة حينًا، وخفية في معظم الأحيان، يشتعل أوراها كلما ظهر كتاب بالغ الجرأة، أو نشرت مقالة كذلك، وتخبو

جذوتها كلما مضت الحياة على وتيرتها المعتادة.

كان التيار الأول يمثل القديم الموروث في ثباته وشموخه، وكان التيار الآخر يمثل الجديد الوافد في بريقه وإغرائه.

وكان يمثل الدفاع عن التيار الأول: رجال الأزهر ودار العلوم والقضاء الشرعي، ومن دار في فلكهم في مصر، وأمثالهم في البلاد العربية والإسلامية.

وكان يمثل التيار الآخر: خريجو المدارس والكليات الأجنبية في الداخل، وخريجو الجامعات الغربية والوافدون من الخارج، ومن تتلمذ عليهم، وحطب في حبلهم.

ولا ريب أنه وجد غلاة في كلا الفريقين. ففي مقابل الذين يريدون تجديد الكعبة والشمس والقمر، وجد الجامدون على كل قديم، الذين يريدون أن يوقفوا حركة الفلك، وسير التاريخ، شعارهم: ليس في الإمكان أبدع مما كان! وضاع الوسط بينهما.

وقد لخص الموقف علامة الشام محمد كرد علي في بحثه «القديم والحديث» بقوله: ها قد أصبحنا بعد هذا النزاع بين علوم الدين وعلوم الدنيا، والأمة شطران: شطر هو إلى البلاهة والغباوة، وشطر إلى الحمق والنفرة. وبعبارة أخرى: نسينا القديم، ولم نتعلم الجديد!

كانت عناوين النزاع بين التيارين تختلف من فترة لأخرى، ولكن المضمون في النهاية واحد. إلا أن التيار الأول يحمل في الغالب عنوانًا منفرًا مستنكرًا، على حين يحمل التيار الآخر عنوانًا جذابًا مغريًا.

تجد ذلك بيِّنًا واضحًا في العناوين التي استخدمت في التعبير عن هذا الصراع:

القديم والجديد، التقليد والتجديد، المحافظة والتحديث، الجمود والتحرر، الرجعية والتقدمية.

حتى انتهى أخيرًا إلى العنوان السائد اليوم، الذي يحمل ثنائية مقبولة إذا أعطيت الكلمة حقها من الفهم والتحليل، وهي ثنائية التكامل، لا ثنائية التضاد والتقابل، وهو «الأصالة والمعاصرة»، وفي وقت ما عبر عنه بـ «الأصالة والتجديد». وقد قدمت فيه دراسات، ونظمت ندوات وحلقات[1].

وبحثنا هذا يتحدث عن «ثقافتنا العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة».

هكذا حدده لي الإخوة الزملاء في كلية «الإنسانيات والعلوم الاجتماعية» بجامعة قطر، الذين خططوا لهذه الندوة الفكرية العلمية، التي تدور بحوثها حول هذا الموضوع المهم: «الثقافة العربية: الواقع وآفاق المستقبل».

ولا ريب أن قضية «الثقافة العربية» قضية بالغة الأهمية، ولا غرو أن عقدت حولها عدة ندوات، ومؤتمرات في أكثر من بلد، تبحث في جانب أو أكثر من جوانبها المتعددة.

ويبدو أن الإخوة الزملاء أرادوا إرضائي أو إغرائي، فجعلوا عنوان بحثي على وجه الخصوص: «الثقافة العربية الإسلامية» ... إلخ. ولم يكتفوا بوصف العربية وحده، فهل يمكن أن تكون ثقافتها عربية غير إسلامية؟

هذا ما ينبغي أن نبحثه هنا: ماهية ثقافتنا: أهي عربية أم إسلامية؟ أم هما معًا؟

---

(1) من ذلك: الندوة التي نظمها «مركز دراسات الوحدة العربية» عن «التراث وتحديات العصر في الوطن العربي»، أو «الأصالة والمعاصرة» بالقاهرة في سبتمبر سنة 1984م، ونشرت بحوثها ومناقشاتها في مجلد ضخم.

وما مكونات هذه الثقافة وخصائصها؟

وما معنى هاتين الكلمتين اللتين اشتهرتا على الألسنة والأقلام، ورددهما الناس هنا وهناك، دون تحديد بين لمفهومهما: الأصالة والمعاصرة؟

وما المقصود بهما في نظرنا نحن المؤمنين برسالة الإسلام، وخلود دعوته، وبقاء أمته، واستمرار كتابه - بلسانه العربي المبين - محفوظًا، كما وعد الله: ﴿وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الكهف: 98].

هذا ما نرجو الله - تباركت أسماؤه - أن يوفقنا بفضله إلى إلقاء شعاع من ضوء، محاولة لإزاحة الضباب والغبش عنه، بقدر جهدنا الكليل، وزادنا القليل. وسنقسم دراستنا هذه إلى أربعة فصول وخاتمة.

﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: 88].

الدوحة: رمضان سنة 1413هـ، مارس 1993م

يوسف القرضاوي

❋ ❋ ❋

الفصل الأول
ثقافتنا العربية الإسلامية
مكوناتها وخصائصها

- عربية أم إسلامية؟
- مكونات الثقافة العربية:
  - الإسلام – اللغة العربية.
- خصائص ثقافتنا:
  - الربانيـــة – الأخلاقيـــة – الإنســـانية – العالميـــة – التسامح – التنوع – الوسطية – التكامل

❊ ❊ ❊

عربية أم إسلامية؟

في «المؤتمر التاريخي» الذي عقد في رحاب جامعة بيروت سنة 1974م تحت عنوان «الحضارة العربية بين الأصالة والتجديد»، وكان لي شرف المشاركة فيه، دار جدل طويل الذيول حول ماهية الحضارة المذكورة: أهي عربية أم إسلامية؟ وما الصلة بين العروبة والإسلام؟ أهي صلة تكامل أم صلة تناقض؟

وهذا الجدل يتجدد ويتكرر كلما تجدد الحديث عن ثقافتنا وحضارتنا، وعن هويتها وانتمائها ونسبها: إلى أي أب تنتسب، وإلى أي قبيل تنتمي؟ إلى الإسلام أم إلى العروبة؟ إلى العرب أم إلى المسلمين؟

وزاد من حدة هذا الجدل وجود تيارين غلوا وتطرفا في النظرة إلى القضية: تيار الإسلاميين الذين يضيقون بالعروبة، وتيار العروبيين «القوميين» الذين يتنكرون للإسلام.

ولو أنصف كل منهما، ونظر في الأمر من جوانبه كلها، لوجدوا أن لا غنى للعروبة عن الإسلام، ولا معنى للإسلام بدون العروبة.

فالعروبة هي لسان الإسلام، ووعاء ثقافته، ولغة كتابه وسنته، والعرب هم عصبة الإسلام، وحملة رسالته الأولون، وهم الذين بعث فيهم الرسول ﷺ من أنفسهم، ليتلو عليهم آيات الله، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة، ثم ينطلقوا في الأمم دعاة ومعلمين.

وأرض العرب هي أرض المقدسات الإسلامية، فيها الكعبة البيت الحرام الذي جعله الله قيامًا للناس، ومثابة لهم وأمنًا، وقبلة لأهل الإسلام، فحيثما كانوا ولو

وجوههم شطره، وإليه يحجـون، وبـه يطوفـون، ومـن حولـه يسـعون ويقفـون وينسكون.

وفي أرض العرب مسجد النبي ﷺ، ومثـوى رفاتـه الشـريف. وفيهـا كـذلك المسجد الأقصى الذي بارك اللَّه حوله.

فكل المساجد التي لا تشد الرجال إلا إليها في أرض العرب.

لهذا كانت العروبة وثيقة الصلة بالإسـلام، كـما أن الإسـلام موصـول الـرحم بالعروبة.

الإسلام هو الذي خلد العربية حينما نزل بها كتابه العظيم، وحدث بهـا رسـوله الكريم، ﷺ، وهو الذي أخرجها من الجزيرة ونشرها في الآفاق.

وهو الذي علم العرب من جهالة، وهداهم من ضلالة، وأخرجهم من ظلـمات الشرك والجاهلية إلى نور التوحيد والإسلام. فقد كانوا كـما وصـفهم اللَّه تعـالى في كتابه: ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: 164، والجمعة: 2].

وأي ضلال أبين من ضـلال قـوم فسـدت عقائـدهم وتصـوراتهم، وفسـدت أخلاقهم وأعمالهم؟

والإسلام هو الذي جعل للعرب رسالة يعيشون بها، ويموتون عليها، ويبذلون الأنفس والنفائس في سبيلها. وبهذا كانوا بالإسلام: ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّـاسِ﴾ [آل عمران: 110].

والإسلام هو الذي وحد العرب من فرقة، وجمعهم من شتات القبلية وأكرمهم بنعمة الأخوة بعد نقمة العداوة، وألف بين قلوبهم فأصـبحوا بنعمـة اللَّه إخوانًـا،

وجعل منهم «أمة» واحدة، تواجه أعتى أمم الأرض، بما لديها من دين تغالي به، وحق تعتز بنصرته، قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عمران: 102].

وما أبلغ ما قاله الإمام قتادة بن دعامة السدوسي في بيان ما كان عليه العرب قبل الإسلام، وما صاروا إليه بعد: «كان هذا الحي من العرب أذل الناس ذلًا، وأشقاه عيشًا، وأبينه ضلالة، وأعراه جلودًا، وأجوعه بطونًا، مكعومين[2] على رأس حجر بين الأسدين: فارس والروم، لا واللَّه ما في بلادهم يومئذٍ من شيء يحسدون عليه، من عاش منهم عاش شقيًا، ومن مات ردّى إلى النار، يؤكلون ولا يأكلون، واللَّه ما نعلم قبيلًا يومئذٍ من حاضر الأرض كانوا فيها أصغر حظًا، وأرقّ فيها شأنًا منهم، حتى جاء اللَّه ﷻ بالإسلام، فورثكم به الكتاب، وأحل لكم به دار الجهاد، ووسع لكم به من الرزق، وجعلكم به ملوكًا على رقاب الناس، وبالإسلام أعطى اللَّه ما رأيتم، فاشكروا نعمه، فإن ربكم منعم يحب الشاكرين، وإن أهل الشكر في مزيد اللَّه، فتعالى ربنا وتبارك»[3].

ولا غرو أن قال عمر بن الخطاب بحق لأبي عبيدة ابن الجراح في رحلته إلى الشام، حيث عرضت له مخاضة في الطريق، فنزل عمر عن بعيره، ونزع خفيه، ثم أخذ بخطام راحلته، وخاض المخاضة، فقال له أبو عبيدة: لقد فعلت - يا أمير

(2) كعم فم البعير وغيره: شدّ فاه لئلا يعض، ومنه قيل: كعمه الخوف فهو مكعوم: أمسك فاه ومنعه من النطق.

(3) من «تفسير الطبري» (7/ 87 - 88)، طبع المعارف.

المؤمنين - فعلًا عظيمًا عند أهل الأرض! ... فصكّه في صدره، وقال: لو غيرك يقولها يا أبا عبيدة؟! أنتم كنتم أقل الناس، وأذلّ الناس، فأعزكم اللَّه بالإسلام، فمهما تطلبوا العزة بغيره يذلكم اللَّه[4].

وقال عمر الثاني - ابن عبد العزيز - وقد قال له قائل بعد موقف من مواقفه المحمودة: جزاك اللَّه عن الإسلام خيرًا يا أمير المؤمنين. فقال له: بل جزى اللَّه الإسلام عني خيرًا!!![5]. فردّ الحق لأهله.

الحق أن الثقافة أو الحضارة التي نعتز بها، وننتمي إليها، ثقافة عربية إسلامية معًا. لا نقول هذا تملقًا للعروبة، ولا مجاملة للإسلام، إنما هي الحقيقة التي تدل عليها كل الأدلة.

هي ثقافة عربية، بحكم اللغة الأساسية التي كتبت بها، وعبرت عنها.

بحكم روح القرآن العربي السارية في جنباتها، المؤثرة في أعماقها.

بحكم تأثير البيان العربي والأسوة المحمدية في مسيرتها.

بحكم أن العنصر العربي كان هو العنصر الأول في تكوينها.

بحكم أن جزيرة العرب كانت مهبط وحيها، ومنطلق دعوتها.

وهي مع ذلك، وقبل ذلك، ثقافة إسلامية بلا ريب.

بحكم الأهداف التي تتوخاها، والحوافز التي تدفعها.

---

(4) ذكره الحاكم في «المستدرك»، وسكت عليه هو والذهبي (3/ 82).

(5) ذكره ابن كثير في ترجمته من كتابه «البداية والنهاية» (9/ 209)، طبع بيروت.

بحكم الفلسفة التصورات التي تحركها وتفجر طاقاتها.

بحكم الأجناس والعناصر الإسلامية المختلفة التي شاركت فيها عربًا وعجمًا.

بحكم الرقعة الواسعة التي كانت مجالًا لها من الصين شرقًا إلى شواطئ الأطلسي غربًا.

فالأصوب – إذن – أن نقول: ثقافة عربية إسلامية، وحضارة عربية إسلامية، وبذلك ننصف الحقيقة، وننصف العروبة والإسلام جميعًا.

ويزداد هذا الأمر وضوحًا عندما نبين مكونات هذه الثقافة وخصائصها.

مكونات الثقافة العربية:

أعتقد أن مكونات الثقافة – لدى كل أمة – واحدة، وأهمها الدين، واللغة، والقيم والمفاهيم السائدة والمتوارثة. وبالنسبة لنا – نحن العرب – نجد أن مكونات ثقافتنا هي: الإسلام والعربية، والقيم والمفاهيم المتوارثة والمتراكمة على مدار التاريخ.

وسأكتفي بالحديث عن الاثنين الأولين: الإسلام، والعربية:

1 – **الإسلام:**

إن الدين هو المكون الأول لثقافة الأمة، أي أمة. فهو الذي يخط مجراه في تفكيرها وضميرها وأغوار وجدانها. وهو الذي يحدد لها فلسفتها الأساسية عن سر الحياة، وغاية الوجود، ويجيبها عن الأسئلة الخالدة التي فرضت نفسها على الإنسان في كل زمان ومكان: من أنا؟ ومن أين جئت؟ وإلى أين أذهب؟ ولماذا أحيا؟ ولماذا أموت؟

الدين هو الذي يجعل للإنسان هدفًا ورسالة، ويجعل للحياة معنى ومذاقًا، ويصل الوجود الإنساني بالأزل والأبد، حين يربطه باللَّه تعالى خالقه، وبالخلود في الدار الآخرة، التي هي الحيوان – أي الحياة – لو كانوا يعلمون.

والإسلام – خاصة – له تأثيره العميق والشامل في ثقافة أمتنا العربية والإسلامية. عن طريق عقائده الإيمانية، وشعائره التعبدية، وقيمه الخلقية، وأحكامه التشريعية، وآدابه العملية، ومفاهيمه النظرية.

فهو دين يتغلغل في حياة الفرد والأسرة والمجتمع، ويؤثر في الفكر والشعور والإرادة، ويوجه العقل والضمير والسلوك، ويصبغ الحياة كلها بصبغة متميزة، تتجلى في توجهها الرباني، ونزوعها الإنساني، وانضباطها الأخلاقي، وتحركها الإيجابي، وتوازنها القيمي.

المسلم يأكل فيسمي اللَّه تعالى، ويشبع فيحمد اللَّه، وينام على ذكر اللَّه، ويستيقظ على ذكر اللَّه، وتجيئه النعمة فيقول: الحمد للَّه، وتصيبه المصيبة فيقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: 156].

وكل حياته معجونة بذكر اللَّه تعالى، والثناء عليه. فـ «اللَّه» تعالى حي في وجدانه، حاضر على لسانه.

ومن قريب حضرت مؤتمرًا للمسلمين في إيطاليا، ولقيت مسلمًا إيطاليًا فعرفت عن سبب إسلامه: أنه وجد مسلمًا مغربيًا يعمل بائعًا متجولًا في البرد الشديد، فسأله: ما الذي يوفقك في البرد الشديد؟ قال: أطلب رزق اللَّه. قال: وهل تكسب ما يكفيك؟ قال: الحمد للَّه، ما أكسبه يكفيني بعضه، وأرسل الباقي إلى أبويّ وإخوتي في المغرب. قال: وهل أنت مسئول عنهم؟ قال: نعم. رضا اللَّه في رضا

الوالدين، وصلة الرحم تطيل العمر؟ قال الإيطالي: يعني أنت راضٍ عن حياتك هذه؟ قال: رضا، ولله الحمد، ربنا يديم نعمته عليّ. قال الإيطالي: ومن أين تعلمت هذا؟ قال المغربي: ديننا علَّمنا هذا: «**ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس**»(6). قال الإيطالي: فكيف لي أن أعرف دينكم؟ قال المغربي: أدلك على المسجد لتقابل إمامه، وهو يشرح لك، فأنا رجل أميّ. وذهب الإيطالي مع المغربي إلى المسجد، ولم يكن ممن يحافظ على الصلاة أو يرتاد المسجد، وما هي إلا أيام حتى دخل الرجل في الإسلام، وحسن إسلامه، وأصبح من الملتزمين الغيورين الداعين إلى الإسلام.

ولا يستطيع أحد يعيش في المجتمع الإسلامي أن ينكر تأثير الإسلام على ثقافته، إيًّا كان قدره من التدين، لأن اللغة نفسها مشحونة بمعاني الدين، والأمثال العامة المنتشرة بين الناس ممزوجة بالدين، والأفكار والمشاعر الموجهة للسلوك متأثرة بالدين، أعني: بالإسلام الذين هو الدين السائد والغالب. حتى الملاحدة والشكاك الذين ظهروا في تاريخ الأمة – على ندرتهم – لا تخطئ تأثير الإسلام على ثقافتهم، فالإسلام – بتصوراته وقيمه وأفكاره ومشاعره وآدابه – قوة غالبة، تؤثر على الفكر والشعور والإرادة من الداخل ومن الخارج، شعر بذلك المرء أو لم يشعر.

وقد أكد الكثيرون ممن عايشوا المسلمين قليلًا أو كثيرًا: أن الدين هو المؤثر الأول في حياتهم وسلوكهم، وإن كانوا من العصاة والمنحرفين عن سواء السبيل.

يقول المؤرخ الفيلسوف الاجتماعي الفرنسي- «غوستاف لوبون» في كتابه «حضارة العرب»: «تأثير دين محمد في النفوس أعظم من تأثير أي دين آخر، ولا

---

(6) جزء من حديث رواه أحمد والترمذي عن أبي هريرة وحسنه في «صحيح الجامع الصغير» (100).

تزال العروق المختلفة التي اتخذت القرآن مرشدًا لها تعمل بأحكامه كما كانت تفعل منذ ثلاثة عشر قرنًا. أجل قد تجد بين المسلمين عددًا قليلًا من الزنادقة والأخلياء، ولكن لن ترى من يجرؤ منهم على انتهاك حرمة الإسلام في عدم الامتثال لتعاليمه الأساسية كالصلاة في المساجد وصوم رمضان الذي يراعي جميع المسلمين أحكامه بدقة، مع ما في هذه الأحكام من صرامة لا تجد مثلها في صوم الأربعين الذي يقوم به النصارى، كما شاهدت ذلك في جميع الأقطار الإسلامية التي زرتها في آسيا وإفريقية. ومن ذلك أتيح لي أن أركب سفينة نيلية كان فيها أفراد عصابة عربية مقرنين في الأصفاد ومتهمين بأنواع الجرائم، فقضيت العجب حين رأيتهم – وهم الذين خرقوا حرمة جميع القوانين الاجتماعية مستخفين بأقسى العقوبات – لم يجرؤوا على انتهاك تعاليم النبي، وحين شاهدتهم يرفعون تلك الأصفاد عنهم وقت الصلاة ليسجدوا للَّه القهار ويعبدوه.

«وعلى من يرغب في فهم حقيقة أمم الشرق – التي لم يدرك الأوروبيون أمرها إلا قليلًا – أن يتمثل سلطان الدين الكبير على نفوس أبنائها». وللدين – ذي التأثير الضئيل فينا – نفوذ عظيم فيهم، وبالدين يؤثر في نفوسهم، ولولا الدين ما حرك ساكن المصريين، منذ الثورة التي ضرجت مصر بالدماء – يعني ثورة 1919 – إلى أن يقول:

«إن الرجل الذي يخاطب العرب باسم اللَّه يطاع لا محالة، ما علموا أنه يتكلم باسم اللَّه حقًا».

فعلى الراصد المؤمن أو الملحد أن يحترم هذا الإيمان العميق. الذي استطاع

العرب أن يفتحوا العالم به فيما مضى، وهم اليوم يصبرون به على قسوة المصير»[7].

بل أقول: إن الإسلام يعتبر مكونًا مهمًا لثقافة غير المسلم الذي يعيش في المجتمع المسلم، وهو يتضح على تفكيره ووجدانه وعلاقاته، شعر أو لم يشعر، أحب أو كره. وهذا ما جعلني أقول للدكتور لويس عوض عندما زار الدوحة منذ سنوات: إن وجودك في المجتمع المسلم يقتضي أن تكون مسلمًا بالثقافة والحضارة، وإن لم تكن مسلمًا بحكم العقيدة والديانة![8].

وقد رأينا من إخواننا النصارى العرب الذين لا يجبنون عن التعبير بصراحة عن أثر الإسلام فيهم وفي ثقافتهم من تركوا شهادات عادلة على هذه الحقيقة التي نتحدث عنها، وذلك مثل الشاعر القروي، ومثل الأستاذ فارس الخوري رئيس وزراء سورية[9]، ومثل الزعيم السياسي مكرم عبيد في مصر الذي قال: أنا نصراني دينًا، مسلم وطنًا.

وبحق للآخرين أن يقول كل منهم: أنا نصراني ديانة، مسلم ثقافة وحضارة.

وصلة الدين بالثقافة ليست خاصة بالثقافة الإسلامية، فكل الثقافات مدينة للأديان في تكوينها وتوجيهها، سواء أكان هذا الدين سماويًا أم وضعيًا، حقًا أم باطلًا، كما هو واضح في ثقافات الشرق والغرب.

والثقافة الغربية على سبيل المثال، هي بنت الديانة المسيحية، بعقائدها

---

(7) من كتاب «حضارة العرب» لـ «غوستاف لوبون» – تعريب عادل زعيتر – (ص 417).
(8) انظر: المجد الثالث من منشورات نادي الجسرة في قطر «قضايا ثقافية» (ص 47).
(9) انظر ما نقلناه من رأيه بصلاحية الإسلام وضرورة تحكيم شريعته، في كتابنا «شريعة الإسلام» (ص 96 – 97).

وتصوراتها، ومواريثها وتقاليدها المختلفة.

وهذا ما سجله الدارسون المتعمقون من المغربيين.

يقول «ت. س. إليوت» في تأثير العقيدة المسيحية في الثقافة والحضارة الأوروبية: «في المسيحية نمت فنوننا، وفي المسيحية تأصلت - إلى عهد قريب - قوانين أوروبا. وليس لتفكيرنا كله معنى أو دلالة خارج الإطار المسيحي. وقد لا يؤمن فرد أوروبي بأن العقيدة المسيحية صحيحة، ولكن كل ما يقوله ويفعله يأتيه من تراثه في الثقافة المسيحية، ويعتمد في معناه على تلك الثقافة».

ويقول: «ما كان يمكن أن تخرج فولير أو نيتشه إلا ثقافة مسيحية. وما أظن أن ثقافة أوروبا يمكن أن تبقى حية إذا اختفى الإيمان المسيحي اختفاءً تامًا. ولا يرجع اقتناعي بذلك إلى كوني مسيحيًا فحسب، بل إنني مقتنع به أيضًا بوصفي دارسًا لعلم الأحياء الاجتماعي.

إذا ذهبت المسيحية فستذهب كل ثقافتنا، وعندئذ يكون عليك أن تبدأ البداية المؤلمة من جديد، ولن نستيطع أن تلبس ثقافة جديدة جاهزة. يجب أن تنتظر حتى ينمو العشب، ليغذو الضأن، ليعطي الصوف، الذي سيصنع منه رداؤك الجديد! يجب أن تمر بقرون كثيرة من الهمجية، ولن نعيش إذن لنرى الثقافة الجديدة لا نحن ولا أحفاد أحفادنا، ولو عشنا لما سعد بها واحد منا[10].

ومثل ذلك يقال في تأثير الهندوسية في ثقافة الهند، والبوذية في ثقافة الصين

(10) ملاحظات نحو تعريف الثقافة لـ «إليوت» (ص145)، ترجمة د. شكري عياد، المؤسسة المصرية العامة.

وكوريا وغيرهما.

ويمكننا أن نؤكد أنه لا ثقافة بغير دين، أيًّا كان هذا الدين.

حتى الذين جحدوا الدين وحاربوه نظريًّا وعلميًّا، كالماركسيين، الذين طاردوه ولاحقوه حيث كان، وشردوا رجاله، وأغلقوا معابده، وحرّقوا كتبه، لم يسعهم إلا أن يصنعوا للناس دينًا جديدًا، يقوم مقام الدين القديم، إلهه المادة، ونبيه ماركس، وجنته الشيوعية المودعة، وشيطانه الرأسمالية، إلى آخر ما نعرف من مبادئ وطقوس لهذه الديانة، التي سمى بعضهم أمثالها: أديانًا بغير وحي!

2 - **اللغة العربية:**

واللغة - أي لغة - هي المكون الثاني للثقافة، فهي وعاء العلوم والمعارف جميعًا، وأداة الإفهام والتعبير العلمي، والفني والعادي. ووسيلة التأثير في العقل والشعور بأدبها ونثرها وشعرها وحكمها وأمثالها وقصصها وأساطيرها، وسائر ألوانها وأدواتها الفنية.

واللَّه تعالى خلق الإنسان، علَّمه البيان، سواء أكان بيانًا نطقيًّا أم بيانًا خطيًّا، ليفصح عما في ضميره بلسان مبين.

وجعل من آياته اختلاف الألسنة، كاختلاف الألوان.

وكان لكل لسان - أي كل لغة - خصائصه، التي تظهر في ثقافته، وتؤثر في تفكيره ووجدانه وسلوكه.

وللعربية - خاصة - تأثير بالغ في ثقافتنا نحن العرب، لما انفردت به هذه اللغة من مميزات لم تتوافر لغيرها.

وحسبها أن اللَّه أنزل بها كتابه الخالد القرآن: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: 2]، ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ 193 عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ 194 بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: 193 – 195].

وإن لغة اختارها اللَّه تعالى لينزل بها خاتم كتابه، وينطق بها خاتم رسله، ويجعلها لغة العبادة لخاتمة رسالاته، لجديرة أن تكون سيدة لغات العالمين.

لقد بلغت العربية الذروة حين نزل بها هذا النص الإلهي الذي أحكمت آياته، ثم فصلت من لدن حكيم خبير، ولا يوجد في أي لغة من لغات الأرض نص إلهي معصوم، غير محرف ولا مبدل؛ إلا العربية، التي شرَّفها اللَّه بالقرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، بعد أن حرِّفت الكتب السماوية جميعًا، بالأدلة القاطعة التي بينها العلماء قديمًا وحديثًا.

لقد ضمنت العربية الخلود، حين نزل بها القرآن الذي تكفل اللَّه تعالى بحفظه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: 9].

وهذا ما جعل لهذه اللغة العزيزة لونًا من القداسة عند العرب المسلمين، بل عند المسلمين غير العرب، الذين يجتهدون في تعلمها ما استطاعوا، ويتقربون إلى اللَّه بنشرها وتعليمها.

وقد حدث اتصال بين اللغة والدين – وبعبارة أخرى: بين الإسلام والعربية – حتى امتزج أحدهما بالآخر، امتزج الروح بالجسد، فمن قرأ متن اللغة وشواهدها، أو نحوها أو صرفها، وبلاغتها، ورأى الشواهد والأمثلة فيها، وجدها ممزوجة بالقرآن مزجًا. وكذلك من درس شعرها ونثرها لمس ذلك لمسًا.

ومن هنا نجد محاولات بعضهم اليوم تفريغ اللغة من هذه الظواهر الأصلية

فيها، وعزلها عن القرآن والسنة، كما ترى ذلك واضحًا في المعجم المعروف باسم «المنجد»[11] الذي تعمد حذف كل استشهاد بالقرآن أو الحديث في أي مادة لغوية.

ولهذا نجد كل من يحارب الإسلام يحارب اللغة العربية معه، إذ لا عربية بغير قرآن، ولا قرآن بغير بيانه من سنة رسوله الكريم، الذي أُمِرَ أن يبين للناس ما نزل إليهم.

ولا غرو أن كانت الدعوة إلى العامية بذرة بذرها أعداء الأمة من المستشرقين والمبشرين والأجانب، ليعزلوها عن الفصحى - لغة القرآن والسنة والتراث الإسلامي كله - كما تبين ذلك بالوثائق وأكدته الدراسات الأكاديمية[12].

وكان من أكبر هم المستعمرين الصليبيين وفروخهم في كل بلد عربي إضعاف الفصحى، وإشاعة العامية، وإعلاء اللغة الأجنبية على اللغة القومية، كما فعل ذلك «دنلوب» في نظام التعليم بمصر[13].

وكان أكبر همهم في البلدان الإسلامية التي تكتب لغتها بالحرف العربي إلغاء الحرف العربي من الكتابة، وإحلال الحرف اللاتيني محله، كما فعلوا ذلك في تركية وماليزية وبعض البلاد الإفريقية.

وكان همّ الحكم العلماني في تركيا محاولة تفريغ التركية من الكلمات العربية التي

---

(11) تصنيف الأب اليسوعي لويس معلوف.

(12) انظر كتاب «تاريخ الدعوة إلى العامية وأثرها في مصر» للدكتورة نفوسة زكريا، وما كتبه الأستاذ محمود محمد شاكر في كتابه «أباطيل وأسمار» عن هذه القضية، ودعوة سلامة موسى ولويس عوض وأمثالهما إلى العامية (ص 151 - 194).

(13) بيّن الأستاذ شاكر أن هدف «دنلوب» من نظامه التعليمي هو سيادة اللغة الإنجليزية على اللغة العربية. انظر: «أباطيل وأسمار» (ص560).

تشغل منها حيزًا كبيرًا، لتوضع موضعها كلمات لا تينية، بدعوى أنها كلمات عالمية!

وما ذاك إلا لأن الكلمات العربية لها تأثيرها وإيجازها في نفس كل مسلم، كما أنها تذكر أبدًا بالقرآن والإسلام، وتؤكد دائمًا روابط الأخوة الإسلامية.

خصائص ثقافتنا:

ولا بد – لكي نفهم ثقافتنا بحق – أن نعرف خصائصها العامة، التي ميزتها عن غيرها من الثقافات. وهذا يحتاج إلى بحث مفرد، ولكننا نشير هنا إلى رؤوسها تبصرة وتذكرة.

فمن خصائص هذه الثقافة:

الربانية: فهي ثقافة معجونة بالجانب الإلهي، قد امتزجت فكرة الإيمان عامة، والتوحيد خاصة، بجوانبها كلها، وجرت فيها مجرى الدم في الشعيرات، في شعرها ونثرها، في أدبها وعلمها وفلسفتها، في كتب اللغة وكتب الدين، وكتب العلم، على اختلافها، فيما تزين به المساجد، فيما تجمل به المنازل.

قد يوجد فيها بعض الملاحدة أو الشكاك، ولكنهم يمثلون الشذوذ الذي يثبت القاعدة ولا ينفيها. ومع هذا تجد نضح هذه الثقافة الربانية عليهم، أحبوا أو كرهوا.

الأخلاقية: وللعنصر الأخلاقي فيها مكان رحيب، وأثر عميق، برز ذلك العنصر حتى في الجاهلية ذاتها، كما نلمسه في شعر حاتم الطائي، وعروة بن الورد،

وعنترة العبسي[14]، وغيرهم.

ثم جاء الإسلام، فعمق هذا العنصر أيما تعميق، ووسعه أبلغ توسعة، وربط الأخلاق بأهداف أرحب وأرقى، وحوافز أنبل وأزكى، ووصلها بفكرة الإلزام والجزاء، جزاء الدنيا وجزاء الآخرة، وحررها من غلو الجاهلية وغلوائها، ورفع الأخلاق مكانًا عليًّا حين جعلها غاية الرسالة: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»[15]، وندد بالعلم الذي لا يثمر خلقًا ولا سلوكًا حسنًا.

وفصَّل آدابًا للعلم والمتعلم، والقارئ والسامع، والباحث والمناظر، بل آدابًا لكل شيءٍ في الحياة، من أدب المائدة إلى بناء الدولة.

واعتبرت الأخلاق ثمرة الاعتقاد الصحيح والتعبد الخالص، وإلا كان فساد الخلق دليل فساد الإيمان، أو فساد العبادة.

ولا تعترف هذه الثقافة بتجزئة الأخلاق: أخلاق لمعاملة المسلمين، وأخرى لغير المسلمين؛ فالخير خير للجميع، والشر شر على الجميع، والحلال حلال للكل، والحرام حرام على الكل، لا كما جاء في توراة اليهود.

كما لا تعترف هذه الثقافة بذلك المبدأ الخطر الشرير: أن الغاية تبرر الوسيلة، بل هي لا تؤمن إلا بالوسيلة النظيفة للغاية الشريفة، ولا تصل إلى الحق بالخوض في الباطل. فإن اللَّه تعالى طيب لا يقبل إلا طيبًا.

ومن ثم لا انفصال في ثقافة الإسلام بين الأخلاق والعلم، ولا بين الأخلاق

---

(14) انظر بعض أشعار هؤلاء في «ديوان الحماسة» لأبي تمام.

(15) رواه ابن سعد والبخاري في «الأدب المفرد»، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي والبيهقي في «الشعب». كلهم عن أبي هريرة. وذكره في «صحيح الجامع الصغير» (2349).

والاقتصاد، ولا بين الأخلاق والسياسة، ولا بين الأخلاق والحرب.

الإنسانية: ومن خصائص هذه الثقافة: الإنسانية. فلحمتها وسداها: احترام الإنسان، ورعاية كرامة الإنسان، وحقوق الإنسان، فهي تقوم على اعتبار أن الإنسان «مخلوق مكرم» من ربه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: 70]، وأن الله جعله في الأرض خليفة، وأنه تعالى سخَّر له ما في السموات وما في الأرض جميعًا منه.

وهي تقوم على تكريم الإنسان من حيث هو إنسان، بغض النظر عن جنسه أو لونه، أو لغته أو موطنه، أو طبقته، بل عن دينه نفسه، فهو مكرم بإنسانيته قبل ديانته. ومن المواقف الرائعة ما رواه البخاري عن النبي ﷺ أنه قد مرت عليه جنازة ميت وهو جالس، فقام لها واقفًا، فقيل له: إنها جنازة يهودي؟ فقال: «**أليست نفسًا**»؟ بلى، ولكل نفس في الإسلام حرمة ومكان[16].

العالمية: وما دامت ثقافة لكل إنسان، فلا غرو أن تكون ثقافة عالمية المنزع، والوجهة، وقد عملت على تقريب الفوارق بين بني الإنسان، تلك التي فرقت البشر قديمًا وحديثًا، ولهذا اشترك فيها عرب وعجم، بيض وسود، أغنياء وفقراء، ملوك وسوقة، مسلمون ونصارى ويهود ومجوس، ولا تنافي بين انتماء هذه الثقافة إلى العروبة والإسلام من ناحية، ووصفها بالعالمية من ناحية أخرى. فهي – كما قلنا – عالمية النزعة والوجهة، مفتوحة لكل الجماعات البشرية، غير مغلقة على نفسها، ولا متعصبة ضد غيرها، مثل الثقافة اليهودية المنغلقة، التي تقوم على

(16) انظر: خصيصة الإنسانية من كتابنا «الخصائص العامة للإنسان»، طبع مكتبة وهبة، القاهرة. والرسالة، بيروت.

تمجيد جنس خاص، وشعب معين، حتى وصفت اللَّه سبحانه بأنه «رب إسرائيل»، واعتبرت الشعب الإسرائيلي - كجنس - شعب اللَّه المختار.

أما ثقافتنا فهي وإن كتبت بالعربية، وانطلقت من الإسلام، فالإسلام نفسه عالمي الرسالة من أول يوم، جاء يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ [البقرة: 21 وغيرها]. لا «يا أيها العرب»، ويدعو إلى اللَّه ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: 2 وغيرها] لا «رب المسلمين ولا رب العرب وحدهم». ويعلن أن دعوته عامة لا خاصة: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107].

التسامح: ومن دلائل هذه العالمية وجود خصيصة «التسامح» فيها، برغم ظهور العنصر الديني فيها وغلبته عليها. ولكن الدين الذي قامت عليه، يؤكد الإيمان بحقيقتين أساسيتين على غاية من الأهمية، لتأثيرهما في فكر الإنسان وسلوكه، وعلاقاته مع الآخرين المخالفين، وهما:

الأولى: أن اختلاف البشر في الأديان وغيرها واقع بمشيئة اللَّه تعالى المرتبطة بحكمته، ولا يملك أحد أن يرد مشيئة اللَّه ويغير سننه في الكون. يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ 118 إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: 118، 119].

الثانية: أن حسابهم على ما ضلوا فيه أو انحرفوا، إنما هو إلى اللَّه يوم القيامة، وليس إلى الناس اليوم. وفي هذا يقول اللَّه لرسوله في شأن المخالفين: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الشورى: 15].

ولهذا وسعت هذه الثقافة وهذه الحضارة غير المسلمين، وفسحت لهم مكانًا في مجتمعاتها، وأعطتهم ذمة اللَّه وذمة رسوله، وذمة جماعة المسلمين، على أن يكون لهم ما للمسلمين، وعليهم ما عليهم، إلا ما اقتضاه اختلاف الديانة، وبقي هؤلاء على عقائدهم وعبادتهم وشعائرهم، وبقيت لهم معابدهم ومؤسساتهم، ولم يجبروا على شيء يمنعهم دينهم منه، بل لم يجبروا على ترك ما يبيحه دينهم لهم كالخمر والخنزير[17]، بل شاركوا في بناء الحضارة الإسلامية، وكان لهم في أحيان كثيرة مناصب وزارية وإدارية ومالية؛ على خلاف ما تعانيه الأقليات والجاليات المسلمة في كثير من المجتمعات الغربية اليوم، التي أقامت الدنيا وأقعدتها من أجل طالبات مسلمات يلتزمن الحجاب الذي فرضه عليهن الإسلام، وكذلك من أجل فتح كلية أوروبية خاصة للدراسات الإسلامية، لتخريج أئمة ووعاظ للجاليات الإسلامية الكبيرة في داخل أوروبا شرقها وغربها.

التنوع: ومن خصائص هذه الثقافة «التنوع»؛ فهي ليست مجرد ثقافة دينية لاهوتية، كما يتصور بعضهم ... إنها ثقافة واسعة متنوعة، فيها الدين بفروعه المتعددة، واللغة والأدب والفلسفة، والعلوم الطبيعية والرياضية، والعلوم الإنسانية، والفنون المختلفة.

فيها فقه أبي حنيفة، وأصول الشافعي، وكلام الأشعري، وتفسير الطبري، ورواية البخاري، وأدب الجاحظ، ومعجم الخليل، ونحو سيبويه، وبلاغة عبد القاهر، وطب ابن سينا، وشعر المتنبي، ومقامات الحريري، وبصريات ابن الهيثم،

---

(17) انظر: كتابنا «غير المسلمين في المجتمع الإسلامي»، فصل «تسامح فريد» (ص47 – 55)، طبع مكتبة وهبة – الطبعة الثالثة.

ورياضيات البيروني، وتصوف الغزالي، وفلسفة ابن رشد، وتحليل ابن خلدون، وخط ابن مقلة، وألحان الموصلي.

فيها ابن طفيل من الأندلس، وابن أبي زيد من تونس، وابن حجر من مصر، وابن الوزير من اليمن، والشيرازي من إيران، والزمخشري من خوارزم، والدهلوي من الهند، وجلال الدين الرومي من تركيا.

فيها صلاح أهل السلوك، وخلاعة أهل البطالة.

فيها «نهج البلاغة»، و«ألف ليلة وليلة».

فيها زهديات أبي العتاهية، وخمريات أبي نواس.

فيها مرثيات الخنساء، ومجون ابن أبي ربيعة

فيها سلفية ابن تيمية، وصوفية ابن عربي.

فيها ظاهرية ابن حزم، ومقاصدية الشاطبي.

فيها عقلانية الفلاسفة، والتزام الفقهاء.

فيها اجتهاد المجددين، وتزمت المقلدين.

فيها الفرق المختلفة من أهل الملة ، والفرق المنشقة عن الملة .

فيها الكتب المقروءة التى امتلأت بها المكبات ، والصور المشهودة التى ازدانت بها الجوامع والمدارس والقصور «الأموى فى دمشق ، والحمراء فى الأندلس ، والأزهر فى مصر ، والسلطان أحمد فى استانبول ، وتاج محل فى الهند» .

إنه التنوع الشامل أو الشمول المتنوع .

الوسطية : يكمل خصيصة «التنوع» خصيصة أخرى هى «الوسطية» أو «التوازن» . فهذه الثقافة تمثل المنهج الوسط ، للأمة الوسط ، بين إفراط الأمم المختلفة وتفريطها . ومع أن الطرفين قد يوجدان داخلها ، إلا أن الصبغة العامة لها ، والطابع الغالب عليها هو الوسطية ، التوازنية ، المستمدة من وسطية الإسلام ، ووسطية أمته : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: 143] .

تجد هذا واضحًا فى الوسطية المتوازنة : بين العقل والوحى ، بين العلم والإيمان ، بين المادة والروح ، بين الحقوق والواجبات ، بين الفردية والجماعية ، بين الإلهام والالتزام ، بين النص والاجتهاد ، بين المثال والواقع ، بين استلهام الماضى والتطلع إلى المستقبل .

التكامل : ومن خصائص هذه الثقافة أيضًا : التكامل ، التكامل فيما بين بعضها وبعض ، فالثقافة اللغوية تخدم الثقافة الدينية ، وهذه تغذى الثقافة الإنسانية ، وكل هذه تستفيد من الثقافة العلمية .

ومثل ذلك تكاملها مع الثقافات الأخرى ، فهى لا تدعى أنها تنشئ كل شىء من عدم ، وتبدأ رحلة الثقافة من الصفر ، بل أعلنت نصوصها المقدسة أنها جاءت متممة لما كان قبلها لا مبتكرة ، مكملة للبناء الذى بدأه رسل الله من قبل ، مصححة للمسيرة التى داخلها بعض التحريف أو الانحراف . ولهذا قال رسولها صصص : **«إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»** ، فهو متمم لا مبتدئ ، ومكارم الأخلاق لم تقطع جذورها من الدنيا ، بل هى موجودة ، وإن كان فيها قصور وتناقص ، ومهمته أن يتممها ويكملها .

وموقف الثقافة الإسلامية مع الثقافات الأخرى كموقف نبوة محمد صصص مع

النبوات الأخرى، والذى عبر عنه الحديث الصحيح: «**إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بنى بيتًا فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟! فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين**»[18].

ومقتضى هذا التكامل الذى اتصفت به الثقافة الإسلامية، أنها لا تجد مانعًا شرعيًا، يمنعها من اقتباس الحكمة، والتماس العلم النافع، والعمل الصالح عند غيرها، ولو كانوا خصومها.

وفى الحديث الذى رواه الترمذى وابن ماجه: «**الكلمة الحكمة ضالة المؤمن، فحيث وجدها فهو أحق بها**»[19]، والحديث ضعيف من حيث سنده، ولكن معناه صحيح، بإجماع علماء الأمة. وهو ما استقر عليه الفقه والعمل.

وقد طلب الرسول الكريم من أسرى المشركين الذين يحسنون الكتابة، ولم يتيسر لهم دفع الفدية فى غزوة «بدر» أن يفدوا أنفسهم بتعليم كل واحد منهم عشرة من أولاد المسلمين الكتابة حتى يحذقوها، فتعلم منهم عدد كان منهم زيد بن ثابت كاتب الوحى، وأحد علماء الصحابة رررت[20].

* * *

(18) متفق عليه من حديث أبي هريرة، كما في «اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان» حديث رقم (1473).

(19) رواه الترمذي في أبواب العلم عن أبي هريرة (2688) وقال: حديث غريب، وذكر أن فيه راويًا يضعف في الحديث من قِبَل حفظه. ورواه ابن ماجه في الزهد (4169).

(20) رواه ابن سعد عن الشعبي مرسلًا، كما في «الطبقات» (1/ 22) طبع بيروت.

الفصل الثاني
لكي نكون أصلاء حقًا

- بين الأصالة والمعاصرة.
- ماذا تعني الأصالة هنا؟
- الإسلام فوق التراث.
- قراءة مستبصرة للتراث
- قراءات متحيزة – أو موجهة – للتراث.

* * *

بين الأصالة والمعاصرة .

السؤال الكبير الذى طرح نفسه علينا منذ أوائل نهضتنا ، واستفاقتنا على تفوق الغرب الذى طالما أخذ عنا ، وتتلمذ علينا ، وكانت جامعتنا موئلًا لطلابه ، وكانت كتبنا مراجع لدراسيه ، ثم ها هو اليوم يتغلب علينا عسكريًا ، ويتحكم فينا سياسيًا ، ويتفوق علينا حضاريًا ، هذا السؤال هو : كيف تكون العلاقة بيننا وبين هذا الوافد الجديد؟ وبعبارة أخرى : كيف نوازن بين قديمنا وحديثهم؟ أو بين تراثنا الأصيل ومعاصرهم الدخيل؟

أنستطيع أن نكون أصلاء ومعاصرين فى الوقت ذاته؟ أى نحقق ذاتنا ، ونعيش عصرنا؟ أم لا بد لنا أن نختار بين أمرين : إما أن نكون أصلاء ، ونضحى بالمعاصرة ، أو نكون معاصرين ونضحى بالأصالة؟

بتعبير آخر : هل العلاقة بين التراث القديم والوافد الحديث - او بين الأصالة والمعاصرة - هى علاقة التضاد والتناقض؟ فلا أمل فى الجمع بينهما ، أو هى علاقة التنوع والتكامل وهنا يمكن الجمع بينهما؟

السؤال خطير ، والجواب مهم ؛ وخصوصًا فى هذه المرحلة التى تسعى فيها أمتنا لتحقيق ذاتها ، بعد أن اكتشفت ذاتها التى غابت أو غُيبت عنها زمنًا .

وقد أجاب عنه أناس بافتراض التناقض بين الأمرين ، فاختار فريق التراث والأصالة ، وعاشوا غرباء عن العالم والزمان .

واختار آخرون العصر والحداثة ، وعاشوا غرباء عن الأهل والمكان .

وبقى آخرون مترددين بين أولئك وهؤلاء .

ولكن الموقف الصحيح هو الذى يُتخذ بعد الدراسة المتأنية لكل من الأمرين المعروضين، فالحكم على الشيء فرع عن تصوره. والتسرع فى مثل هذه المواقف الفكرية قد يوقع صاحبه فى هوة لا يخرج منها إلا ما شاء الله.

وقد عرض علينا أحد المفكرين المرموقين من العرب كيف سقط فى هذا الخطأ الشنيع من قديم، حين تسرع فى الجواب بغير علم عن هذا السؤال؛ إنه الدكتور زكى نجيب محمود، الذى يحكى لنا ذلك فى كتابه «تجديد الفكر العربى» حين واجه السؤال عن طريق للفكر العربى المعاصر، يضمن له أن يكون عربيًا حقًا «أى أصيلًا» ومعاصرًا حقًا:

«إذ قد يبدو للوهلة الأولى أن ثمة تناقضًا أو ما يشبه التناقض بين الحدين، لأنه إذا كان عربيًا صميمًا، اقتضى ذلك منه أن يغوص فى تراث العرب الأقدمين حتى لا يدع مجالًا لجديد - وإن من أبناء الأمة العربية اليوم من قد غاصوا هذا الغوص الذى لم يبق لهم من عصرهم ذرة هواء يتنفسونها - وأما إذا كان معاصرًا صميمًا، كان محتومًا عليه أن يغرق إلى أذنيه فى هذا العصر بعلومه وآدابه وفنونه وطرائق عيشه، حتى لا تبقى أمامه بقية ينفقها فى استعادة شيء من ثقافة العرب الأقدمين.

نعم، قد يبدو للوهلة الأولى أن بين العربية والمعاصرة تناقضًا أو ما يشبه التناقض، ولذلك يجيء السؤال الذى يلتمس طريقًا يجمع الطرفين فى مركب واحد، وكأنما هو سؤال يطلب أن تجتمع مع الماء جذوة نارة؛ فهل بين الطرفين مثل هذا التعارض حقًا؟ أو أن ثمة طريقًا يجمع بينهما؟ ذلك هو السؤال».

يقول الدكتور: «ولقد تعرضت للسؤال منذ أمد بعيد، ولكنى كنت إزاءه من المتعجلين الذين يسارعون بجواب قبل أن يفحصوه ويمحصوه ليزيلوا منه ما يتناقض

من عناصره ؛ فبدأت بتعصب شديد لإجابة تقول : إنه لا أمل فى حياة فكرية معاصرة إلا إذا بترنا التراث بترًا ، وعشنا مع من يعيشون فى عصرنا علمًا وحضارة ، ووجهة نظر إلى الإنسان والعالم ، بل إنى تمنيت عندئذ أن نأكل كما يأكلون ، ونجدَ كما يجدُون ، ونلعب كما يلعبون ، ونكتب من اليسار إلى اليمين كما يكتبون!! على ظن منى آنئذ أن الحضارة وحدة لا تتجزأ ، فإما أن نقبلها من أصحابها ـ وأصحابها اليوم هم أبناء أوربا وأمريكا بلا نزاع ـ وإما أن نرفضها ، وليس فى الأمر خيار بحيث ننتقى جانبًا ونترك جانبًا ، كما دعا إلى ذلك الداعون إلى اعتدال ؛ بدأت بتعصب شديد لهذه الإجابة السهلة . وربما كان دافعى الخبىء إليها هو إلمامى بشىء من ثقافة أوربا وأمريكا ، وجهلى بالتراث العربى جهلًا كاد أن يكون تامًا ، والناس ـ كما قيل بحق ـ أعداء ما جهلوا .

ثم تغيرت وقفتى مع تطور الحركة القومية ، فما دام عدونا الألدُ هو نفسه صاحب الحضارة التى توصف بأنها معاصرة ، فلا مناص من نبذه ونبذها معًا ، وأخذت أنظر نظرة التعاطف مع الداعين إلى طابع ثقافى عربى خالص ، يحفظ لنا سماتنا ويردُ عنا ما عساه أن يجرفنا فى تياره فإذا نحن خبرٌ من أخبار التاريخ ، مضى زمانه ولم يبق منه إلا ذكراه : لكننى حين أخذت أتعاطف مع هذه النظرة العربية الخالصة ، كنت إزاءها بلا حول ؛ فهذا مجال لم يكن لى فيه نصيب يذكر ، فلا أنا قد أتيحت لى - أيام الدرس - فرصة كافية للإلمام بقسط موفور من تلك الثقافة العربية الخالصة - اللهم إلا النزر اليسير الذى كان يتلقاه التلميذ فى المدارس المدنية - ولا أنا استطيع أن أجد الفراغ لأتوفر على الدرس من جديد .

وأحمد الله أن أتاح لى آخر الأمر هذا الفراغ ، كما أتاح لى مكتبة عربية أقضى

فيها بعض ساعات النهار[21] يقصد مكتبة جامعة الكويت التى كان يعمل بها أستاذًا للفلسفة .

هكذا عبر الرجل عن موقفه بصراحة وشجاعة : أنه لا أمل فى حياة فكرية معاصرة إلا إذا بترنا التراث بترًا ، وعشنا مع من يعيشون فى عصرنا علمًا وحضارة ، ووجهة نظر إلى الإنسان والعالم ، نأكل كما يأكلون ، ونجد كما يجدون ، ونلعب كما يلعبون ، ونكتب من اليسار إلى اليمين كما يكتبون!!

وإذا كان الدكتور زكى نجيب محمود قد اكتشف خطأه فى التسرع بالجواب عن السؤال الكبير ، قبل أن يعرف شيئًا عن تراث أمته وثقافتها ، وطفق يعالج هذا الخطأ بالقراءة والدراسة للتراث ، بعد أن فات ما فات من العمر ، وأصدر عدة كتب ودراسات حول الموضوع[22] ، فإن كثيرين من تلاميذ الغرب لم يكتشفوا ما اكتشف من خطأ ، وربما اكتشفوه ولم تسعفهم الشجاعة ليعلنوه ، ولم يواتهم العزم لعالجوه ، وربما كانت لهم مصالح وارتباطات وولاءات تحتم عليهم أن يظلوا مُصرين على ما هم عليه ، مدافعين عنه بكل ما يستطيعون .

وثمت آخرون راضون كل الرضا بموقفهم التبعى المقلد للغرب ، اقتناعًا منهم لا خوفًا ولا طمعًا ، كمن وصف الله تعالى بقوله : ﴿**أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا**﴾ [فاطر: 8] .

إن الموقف العلمى السليم أن نتبين : ماذا تعنى الأصالة؟ أو ماذا يُطلب منا لكى

---

(21) انظر: «تجديد الفكرة العربي» (ص 12 – 14)، طبع دار الشروق، القاهرة.

(22) منها: «تجديد الفكر العربي»، وفي «تحديث الثقافة العربية»، و «ثقافتنا في مواجهة العصر»، وغيرها.

نكون أصلاء حقًا؟ وماذا تعنى المعاصرة؟ أو ماذا يُطلب منا لكى تكون معاصرين حقًا؟ ثم ننظر: هل يوجد تناقض بين الأمرين؟ بحيث إذا قبل أحدهما رفض الآخر؟ أو أن كلا منهما يكمل الآخر، ولابد أن نعيش بهما معًا؟ هذا ما نحاول الإجابة عنه فيما يلى من صحائف.

* * *

ماذا تعني الأصالة هنا ؟

إن «الأصالة» التي نؤمن بها، وندعو إليها وصفًا أساسيًا لثقافتنا، ليست محض كلمة تقال، ولا دعوى تدعى، إنها حقيقة ثابتة، لها معان تقوم عليها، ودلائل تنبئ عنها.

وتركيزنا على وصف ثقافتنا العربية الإسلامية بالأصالة ليس لمجرد التباهي والفخر، بل هو مؤشر أو مفتاح لمجموعة من المعاني الكبير، يجب التنبيه عليها:

1 - **ضرورة المعرفة والفهم لثقافتنا:**

وأول هذه المعاني التي تتطلبها الأصالة هي المعرفة والفهم: فهم هذه الثقافة بخصائصها الذاتي، ومكوناتها الأساسية. فهمها من مصادرها الأصيلة، وليس من المصادر الهامشية أو المدخولة، او المنحولة، أو الواهية.

فهمها من أهلها الثقات لا المجروحين، ناهيك بغير أهلها، من الدخلاء عليها، الغرباء عنها.

فهمها بأدواتها ومناهجها الخاصة، لا بأدوات ومناهج غريبة عنها، مفروضة عليها.

لقد رأينا من يرفض رواية «صحيحي البخاري ومسلم»، ويأخذ برواية كتاب «الإمامة والسياسة» المعز لابن قتيبة، وهو كتاب لقيط، منحول لابن قتيبة.

رأينا من يطعن في أسانيد المُحدثين، ويعتمد أسانيد الكتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصفاني.

رأينا من يستند إلى روايات عن عصر الفتنة الكبرى ذكرها الطبري مثلًا، بأسانيد واهية مردودة، فاعتبر هؤلاء ذكرها من عالم كبير توثيقًا لها، وهو قد برئ من العهدة بذكر سندها. وعلى الباحث أن يرجع إلى علم الرجال، ليعرف إن كان الراوي معدلًا أو مجروحًا. وقد بين في مقدمته[23] لماذا اتبع هذا المنهج، ولم يدقق كما دقق في كتب الآثار أو كتب الفقه، التي يُعرف بها الحلال والحرام؟

إن كتب الحديث، المروية بالأسانيد نفسها، فيها الضعيف والموضوع، فكيف بغيرها؟

رأينا من يحكم على تاريخ الأمة – وخصوصًا في أفضل عصورها – معتمدين على ما تذكره كتب الأدب والنوادر والأقاصيص، التي تروي الغث والسمين، والصدق والكذب، وكأن بحسبهم أنهم وجدوه في كتاب، ولو كان «ألف ليلة وليلة»!

رأينا من يعتبر المستشرقين حُجة في كل ما يكتبون، ولا يحاول أن يمتحن آراءهم، ويناقش استدلالاتهم، ويقارن دعاويهم بعضها ببعض. ولو فعل لوجد الكثير الكثير من التهافت والتناقض والخطل المبين، والدعاوى العريضة بغير برهان. ولتبين له أن ثمت نقاط ضعف أساسية فيما يكتبه المستشرقون عن ثقافتنا، نبهنا عليها في بعض ما كتبناه من قبل، هي:

أولًا: عدم تمكنهم من اللغة العربية، وتذوقهم لها، وتفهمهم لدلالتها المتنوعة، وهذا لا بد أن يكون له انعكاسه على مدى فهمهم للمصادر الإسلامية الأصيلة،

---

(23) انظر «تاريخ الطبري» (1/ 7، 8) طبع دار المعارف.

وخصوصًا القرآن العزيز، والسُنة المشرفة، ولهذا كان فهمهم للإسلام ورسالته مشوشًا ومنقوصًا.

ثانيًا: عقدة تفوق الإنسان الغربي، والعقل الغربي، والحضارة الغربية، والنظر إلى الغرب أنه سيد العالم، وأن أوروبا أم الدنيا، وأن التاريخ من الغرب بدأ، وإليه يعود.

ثالثًا: الانطلاق من مسلمات غير قابلة للامتحان عند الإنسان الغربي، وهي أن القرآن ليس كلام اللَّه، وأن محمدًا ليس رسول اللَّه، فهو قد كون فكرته مقدمًا قبل أن يبحث، ثم هو يسعى في بحثه للاستدلال عليها بكل ما يمكنه، وفي سبيل هذا يقبل الواهيات من الروايات، ويُصدق الأكاذيب، ويُضخم الوقائع الصغيرة، ويجعل من الحبة قبة، ومن الشبهة حُجة، ويستدل بما ليس بدليل، ويرفض ما يخالف وجهته وإن كان في وضوح الشمس.

رابعًا: أن دراسات المستشرقين كثيرًا ما تكون موجهة لخدمة أهداف عملية، مطلوبة منها لهذه الدولة أو تلك. وكثيرًا ما تُرصد الملايين لتحقيق هذه البحوث، وهذا ما يجعل هذه الدراسات غير مبرأة من الغرض[24].

وقد بين العلامة الأستاذ محمود محمد شاكر في رسالته القيمة النافعة «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا» إن المستشرق الذي يدخل ثقافتنا دارسًا مناقشًا، لا يمكنه أن يتحرر من ذاتيته، وسلطان لغته وثقافته ودينه، وأن يكون محايدًا موضوعيًا فيما يدرسه ويكتبه، وذلك من عدة طرق، تجعل مهمته صعبة كل الصعوبة، بل تكاد

(24) انظر كتابنا: «أولويات الحركة الإسلامية» (ص 183).

تكون مستحيلة على مثله:

«فمن طريق «اللغة» التي نشأ فيها صغيرًا، فإنه يسدده أو يتهدده، الإحاطة بأسرار «اللغة» وأساليبها الظاهرة والباطنة، وعجائب تصاريفها التي تجمعت وتشابكت على مر القرون البعيدة، فصارت ألفاظها وتراكيبها الموروثة والمستحدثة تحمل – من كل زمان مضى وكل جيل سبق – نفحة من نفحات البيان الإنساني بخصائصه المعقدة والمكتمة، أو خصائصه السمحة والمستعلنة. وبين تمام الإحاطة باللغة وقصور الإحاطة بها، مزالق تزل عليها الأقدام، ومخاطر يُخشى معها أن تنقلب وجوه المعاني مشوهة الخلقة مستنكرة المرآة، بقدر بعدها عن الأسرار الخفية المستكنة في هذه الألفاظ والتراكيب.

ومن طريق «الثقافة»، فإن «الثقافة» – فاعلم – تكاد تكون سرًا من الأسرار الملثمة في كل أمة من الأمم وفي كل جيل من البشر. وهي في أصلها الراسخ البعيد الغور، معارف كثيرةٌ لا تحصى، متنوعة أبلغ التنوع لا يكاد يُحاط بها، مطلوبة في كل مجتمع إنساني للإيمان بها أولًا عن طريق العقل والقلب، ثم للعمل بها حتى تذوب في بُنيان الإنسان وتجري منه مجرى الدم لا يكاد يُحس به، ثم للانتماء إليها بعقله وقلبه وخياله انتماء يحفظه ويحفظها من التفكك والانهيار، وتحوطه ويحوطها حتى لا يفضى إلى مفاوز الضياع والهلاك. وبين تمام الإدراك الواضح لأسرار «الثقافة» وقصور هذا الإدراك، منازل تلتبس فيها الأمور وتختلط، ومسالك تضل فيها العقول والأوهام حتى ترتكس في حمأة الحيرة، بقدر بعدها عن لباب هذه «الثقافة» وحقائقها العميقة البعيدة المتشعبة.

ومن طريق «الأهواء» وهي التي تسري في خفاء وتدب، إلا أنها لا تدب ولا تأتيك إلا متبرجة في تمام زينتها من «اللغة» ومن «الثقافة»، مترديةً برداء براءة

القصد وخلوص النية، متحلية بجواهر الدقة والاستيعاب والتمحيص والمهارة والحذق، حتى يتاح لصاحبها أن يقتنص غفلتك، ويتلعب عندئذ بك وبعقلك ما شاء له التلعب، من حيث يوهمك أنه قد استوعب لك جمع «المادة» ويهول عليك تهويل السحرة بما يحشد تحت عينيك ويستكثر، مخفيًا عنك بتمويهه من «المادة» ما قد يبطل ما أراد به سحر عينيك واهتبال غفلتك، ثم استلحاق عقلك بعقله، إذ أنت عندئذ مفتون بالزينة المتبرجة، وبتحاسين رداء البراءة وخلوص النية، وبالحلي النفسية المتلألئة التي يتطلبها «ما قبل المنهج» بشطريه: «المادة»، و«التطبيق» إذ أنت هائم معه، مريد أو غير مريد، «في إثر كل قبيح وجهه حسن»[25] كما يقول أبو الطيب[26]. اهـ.

المثقف «الأصيل» حقًا من وفق لمعرفة هذه الثقافة من مصادرها الحقة، واستقاها من ينابيعها الصافية، وعل منها ونهل، وأخذ منها بقدر ما اتسع واديه: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: 17].

أما من جهل هذه الثقافة، وحرم من السياحة في رحابها، أو التنزه في رياضها، فموقفه منها موقف الجاهل لما يجهله. وقد قال العرب: من جهل شيئًا عاداه. وفي القرآن تصديق ذلك حيث يقول اللَّه تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ [يونس: 39].

---

(25) انظر: «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا» للأستاذ شاكر، وبخاصة الصفحات (41 – 44) طبع دار الهلال بمصر.

(26) هو من قوله يذكر أهل العشق:

مما أضر بأهل العشق أنهمُ هووا، وما عرفوا الدنيا وما فطنوا
تفنى عيونهم دمعًا، وأنفسهم في غثر كل قبيح وجهُهُ حسنُ

وكثير من مثقفي عصرنا من حملة الألقاب الكبيرة من هذا الصنف، ومنهم من شب على ذلك وشاب عليه، ومات عليه.

ومنهم من أراد اللَّه به خيرًا، ففتح له بابًا إلى هذه الثقافة، جعله يغير رأيه، ويعدل من موقفه كثيرًا أو قليلًا، معترفًا بذلك في شجاعة تذكر له فتشكر.

من هؤلاء الأستاذ إسماعيل مظهر، صاحب مجلة «الفصول» ومترجم كتاب «أصل الأنواع» لدارون، وقد كان داروينيًا خالصًا، ثم كتب في سنة 1960م كتابه «الإسلام أبدًا» فانتقل - كما يقول الدكتور حسن حنفي[27] من طرف إلى طرف، ومن نقيض إلى نقيض، ومن الحديث إلى القديم، ومن الجديد إلى التراث، ومن الوافد إلى الموروث.

ومن هؤلاء الدكتور مصطفى محمود الذي بدأ شاكًا أو ملحدًا، معتنقًا للفكر الماركسي المادي، كما بدأ ذلك في كتابه «اللَّه والإنسان»، ثم انتقل من الجحود إلى اليقين، ومن الشك إلى الإيمان، ومن الماركسية إلى الإسلام، وأصدر في ذلك كتابًا، وحرر مقالات، وقدم برنامجه الشهير في التليفزيون «العلم والإيمان». بل حاول الاتجاه نحو فهم عصري للقرآن، لم يسلم من بعض الشطط، وهو ما أنكره عليه كثيرون من أهل الاختصاص.

ومن هؤلاء - كما ذكرنا من قبل - الدكتور زكي نجيب محمود، الذي أعلن ذلك في صراحة في مقدمة كتابه «تجديد الفكر العربي» قال: «لم تكن قد أتيحت لكاتب هذه الصفحات في معظم أعوامه الماضية فرصة طويلة الأمد، تمكنه من

---

(27) من حث له عن «الموقف من الغرب: الماضي، والحاضر، والمستقبل» قدمه لمؤتمر «الثقافة العربية» بالقاهرة، الصيف الماضي سنة 1992.

مطالعة صحائف تراثنا العربي على مهل، فهو واحد من ألوف المثقفين العرب، الذين فتحت عيونهم على فكر أوروبي - قديم أو جديد - حتى سبقت إلى خواطرهم ظنون بأن ذلك هو الفكر الإنساني الذي لا فكر سواه، لأن عيونهم لم تفتح على غيره لتراه، ولبثت هذه الحال مع كاتب هذه الصفحات أعوامًا بعد أعوام: الفكر الأوروبي دراسته وهو طالب، والفكر الأوروبي تدريسه وهو أستاذ، والفكر الأوروبي مسلاته كلما أراد التسلية في أوقات الفراغ؛ وكانت أسماء الأعلام والمذاهب في التراث العربي لا تجيئه إلا أصداء مفككة ومتناثرة، كالأشباح الغامة يلمحها وهي طافية على أسطر الكاتبين.

«ثم أخذته في أعوامه الأخيرة صحوة قلقة؛ فلقد فوجئ وهو في أنضج سنيه، بأن مشكلة المشكلات في حياتنا الثقافية الراهنة، ليست هي: كم أخذنا من ثقافات الغرب وكم ينبغي لنا أن نزيد؛ إذ لو كان الأمر كذلك لهان، فما علينا عندئذٍ إلا أن تضاعف من سرعة المطابع، ونزيد من عدد المترجمين، فإذا الثقافات الغربية قد رصت على رفوفنا بالألوف بعد أن كانت ترص بالمئين، لكن لا، ليست هذه هي المشكلة وإنما المشكلة على الحقيقة هي: كيف نوائم بين ذلك الفكر الوافد الذي بغيره يفلت منا عصرنا أو نفلت منه، وبين تراثنا الذي بغيره تفلت منا عروبتنا أو نفلت منها؟ إنه لمحال أن يكون الطريق إلى هذه المواءمة هو أن نضع المنقول والأصيل في تجاور، بحيث نشير بأصابعنا إلى رفوفنا فنقول: هذا هو شيكسبير قائم إلى جوار أبي العلاء؛ فكيف إذن يكون الطريق؟

«استيقظ صاحبنا - كاتب هذه الصفحات - بعد أن فات أوانه أو أوشك، فإذا هو يحس الحيرة تؤرقه، فطفق في بضعة الأعوام الأخيرة، التي قد لا تزيد على السبعة أو الثمانية، يزدرد تراث آبائه ازدراد العجلان، أخذ صاحبنا - وما يزال -

يعب صحائف التراث عبًّا سريعًا، والسؤال ملء سمعه وبصره: كيف السبيل إلى ثقافة موحدة متسقة يعيشها مثقف حي في عصرنا هذا، بحيث يندمج فيها المنقول والأصيل في نظرة واحدة»؟[28].

ولا يزال تيار الأصالة يكسب يومًا بعد يوم من أنصار «التغريب» الخلصاء أو المهجنين، من مختلف مدارسه الهادية أو العلمانية، الماركسية أو الليبرالية، ويضيف إلى رصيده جديدًا، مسلحًا بأسلحة الغرب ذاته، قادرًا على الدفاع والهجوم بفكر العصر، ومناهج العصر.

بيد أن الذي نركز عليه هنا: أن الأصالة الحقة لا تكون بمجرد الدعوى أو الإعلان. بل لا بد من الإطلاع الكافي على أصول ثقافتنا، مما لا يسع المثقف العربي المسلم جهله.

ليس من الضروري أن يقرأ كل ما قرأه مثلًا الأستاذ محمود شاكر، حين بدأ رحلته مع التراث وثقافته، مما حدثنا عنه في مقدمة كتابه عن «المتنبي» ونشرته «دار الهلال» في «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا»[29].

لكن هنا حدود دنيا لمن يريد أن يتعرف على هذه الثقافة، ويفتح مغاليقها، ويفقه سرها.

---

(28) مقدمة كتاب «تجديد الفكر العربي» للدكتور زكي نجيب محمود، طبع دار الشروق – بيروت.

(29) انظر: الفقرات: (1، 3، 10) من الرسالة المذكورة – صفحات (10 – 13، 36، 37) وفيها ذكر أنه قرأ كل ما وقع تحت يده من هذا الإرث العظيم الضخم المتنوع، حتى قرأ الفلسفة القديمة، والحساب القديم، والجغرافية القديمة، وكتب النجوم، وصور الكواكب، والطب القديم، ومفردات الأدوية، وحتى قرأ البيزرة والبيطرة والفراسة ... إلخ، لا ليتمكن من هذه العلوم، بل ليلاحظ ويتبين، ويزيح الثرى عن الخبئ والمدفون كما قال.

وفي مقدمة ذلك: اللغة العربية وعلومها وآدابها.

ثم تأتي علوم الشريعة بشتَّى فروعها: التفسير وعلوم القرآن، والحديث وعلومه، والفقه وأصوله، والعقيدة وما يتصل بها، والتصوف والأخلاق.

وفي كل علم من هذه العلوم أصول وفروع، وله مداخل ومفاتيح، وفيه مدارس ومذاهب، وله مصادر ومراجع، تولدت منها متون وشروح، وحواشٍ، منها المبسوط، ومنها الوسيط، ومنها الوجيز، ومنها الخلاصة.

أضف إلى ذلك السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي العام، وتاريخ الطبقات والتراجم العامة والخاصة، وتاريخ العلوم ومصادرها.

وليس مطلوبًا ولا ممكنًا أن يتعمق «المثقف الأصيل» في كل هذه المعارف، ويسبر أغوارها، وإنما ينبغي أن يلم بها، ولو إلمامة سريعة، على نحو ما قالوا عن الأديب: هو من يعرف شيئًا عن كل شيء، بخلاف العالم فهو من يعرف كل شيء عن شيء.

والمثقف في عصرنا هو الأديب في العصور الماضية.

2 - **الاعتزاز بالانتماء الإسلامي العربي:**

وثاني ما تتطلبه الأصالة منا هو: الاعتزاز بانتمائنا إلى الإسلام المؤثر الأول في صنع هذه الثقافة، والذي وجهها وجهته، وصبغها صبغته: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة: 138].

هو الذي حدد الأهداف ورسم المناهج، وأعطى الحوافز وأرسى الدعائم، وربّى الإنسان الذي يفكر ويريد ويتحرك في ضوء كتابه الهادي للتي هي أقوم، وسنة

رسوله الذي جعله اللَّه أسوة حسنة للمؤمنين، وختم برسالته كل رسالات السماء.

هذا الاعتزاز بالانتماء الإسلامي هو واجب كل مسلم رضي باللَّه تعالى ربًّا، وبالإسلام دينًا وبالقرآن إمامًا، وبمحمد ﷺ نبيًّا ورسولًا.

فهو يعتز بنعمة الإسلام: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: 3]. إنه دين اللَّه الواحد، دين الرسل جميعًا، الذي لا يقبل اللَّه دينًا غيره: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: 19]. وهو يعتز برسالة محمد عليه الصلاة والسلام: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: 164].

إنه الرسول الخاتم الذي بعثه اللَّه مصدقًا لما بين يديه، ومصححًا لما حرف وبدل من الرسالات، ومتممًا لما جاء بها مما كان مناسبًا للزمان والمكان وحال الإنسان، فكان عنوان رسالته التيسير لا التعسير، والتبشير لا التنفير، ورفع الحرج عن الدين، والعنت عن المكلفين، وكان وصف رسالته في كتب أهل الكتاب من التوراة والإنجيل، أنه: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: 157]. وهو يعتز بأعظم كتاب أنزله اللَّه، وهو القرآن، الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: 42]. هو دستور الخالق لإصلاح الخلق، وقانون السماء لهداية الأرض: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: 9]. إنه الكتاب الذي تحدى العرب فأعجزهم ولا يزال تحديه قائمًا، وإعجازه متجددًا، وهدايته دائمة إلى قيام الساعة.

وهو يعتز بانتسابه إلى «الأمة الوسط» التي بوأها الله مكان الشهادة على سائر الأمم: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: 143][30]، ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 110].

فهي أمة دعوة ورسالة، وليست أمة عنصرية متغلقة على نفسها، كبني إسرائيل، أمة هداية وليست أمة جباية.

ولكن العربي يضيف إلى هذا الاعتزاز اعتزازًا آخر، بأنه ينتمي إلى أهل رسول الله ﷺ، ويتكلم بلغة القرآن، ويفهم عن الله ورسوله دون ترجمان. ويعيش في أرض تعتبر مأرز الإسلام، ومعقله، قريبًا من مقدسات الإسلام، ومساجد الإسلام الكبرى، التي لا تشد إلا إليها الرحال. يقول الله تعالى لرسوله: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ 43 وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: 43، 44]. ومعنى «ذكرٌ لك»: أي فخر ومجد لك ولقومك، تذكركم به الأمم. ويقول سبحانه: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: 10]، أي فيه شرفكم وفخركم تذكرون به أبدًا.

هذا الاعتزاز بانتمائنا الإسلامي العربي، هو مقتضى الأصالة، فالأصيل هو من كان له أصل يرجع إليه، ونسب يعول عليه، وأهل يحتمي بهم ويلجأ إليهم، إذا عدا عليه عادٍ، أو استخف بحرماته مستخف.

---

(30) انظر تفسير هذه الآية من «ظلال القرآن» للشهيد سيد قطب لتتبين فيها مظاهر الوسطية الهاية والمعنوية التي تميزت بها هذه الأمة، وراجع خصيصة الوسطية من كتابنا «الخصائص العامة للإسلام»، طبع مكتبة وهبة، والرسالة.

أما الدعيّ الزنيم، فليس له ما يعتز به، أو ينتمي إليه، ويستوي عنده الشريف والوضيع، والأصيل والدخيل، والنسيب واللقيط، بل لعله يفضل الثاني على الأول، دفاعًا عن خسته، وتبريرًا لوضاعته، من حيث يشعر أو لا يشعر.

وقد نقلنا عن عمر الأول: ابن الخطاب، وعن عمر الثاني: ابن عبد العزيز ما ينبئ عن هذا الاعتزاز.

وننقل هنا ما يؤكد هذا من كلمات ربعي بن عامر أمام رستم قائد جيوش الفرس، وهي كلمات كأنها نور من الكلام أو كلام من النور، كما يقول الرافعي رَحِمَهُ اللَّهُ. فقد سأله رستم: من أنتم؟ فقال ربعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «نحن قوم ابتعثنا اللَّه لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة اللَّه وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام»![31].

بهذه الكلمات القليلة لخص هذا الصحابي فلسفة الإسلام وأهدافه الكبرى في حياة البشرية؛ إنها رسالة تحرير وتطهير، وإنقاذ وإصلاح.

هذا هو الاعتزاز الذي نريده من المثقف العربي المسلم، الذي ينتمي إلى ثقافة العرب والمسلمين، ويشعر أنه عضو حي في جسم هذه الأمة العظيمة.

نريد من العربي المسلم أن يتحرر من عقدة النقص التي يعاني منها بعض الناس تجاه الثقافة الغربية، والحضارة الغربية، واللغات الغربية، والتقاليد الغربية، والأزياء الغربية، حتى الرذائل الغربية والمنكرات الغربية!!

---

(31) انظر: تاريخ الطبري (3/ 517 - 529)، طبع دار المعارف، وتأمل فيها مواقف زهرة بن الحوية، وربعى بن عامر، وحذيفة بن محصن، والمغيرة بن شعبة، وفود سعد بن أبي وقاص - وكلماتهم المضيئة أمام رستم ورجاله، لتجد فيها اليقين والثقة والاعتزاز البالغ.

أجل ... من الناس من يحمر وجهه خجلًا إذا لم يشارك القوم في شرب الخمر – إذا كان ضيفًا، وفي تقديمها إذا كان مضيفًا وفي مراقصة امرأة صديقه، ومراقصة صديقه لامرأته، على أنغام الموسيقى الصاخبة!

نريد من العربي المسلم أن يكون محور اعتزازه الإسلام قبل أي شيء آخر، أي قبل العرق والقبيلة، والإقليم والطبقة، وأن ينشد مع العربي القديم:

أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم!

وصدق الله إذ يقول: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: 33].

وإنما كان لهذا القول: ﴿إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ قيمة، لأنه يقوله معتزًا مغاليًا بمبدئه، مباهيًا بدعوته، كما قال الله تعالى لرسوله: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ 161 قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ 162 لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: 161 – 163].

ونريد من العربي شيئًا آخر، وهو الاعتزاز بلغته، لغة القرآن والحديث والثقافة الإسلامية، وأن يعمل على أن تكون لغة الحياة، ولغة العلم، ولغة الثقافة، وقد كانت لغة العلم الأولى في العالم كله لعدة قرون، فلا يجوز أن تعجز اليوم عما قامت به الأمس.

3 – **العودة إلى الأصول:**

وثالث ما تتطلبه منا الأصالة – إذا كنا أصلاء حقًّا – أن نعود إلى أصولنا وجذورنا العقدية والفكرية، والأخلاقية، نستمسك بعراها، ونتشبث بأهدابها،

ونحوّل اعتزازنا النظري والعاطفي إلى سلوك عملي.

إن الاعتزاز مطلوب ولا شك، ولكنه يصبح فاقد القيمة، عديم الجدوى، إذا لم يتحول إلى عمل.

بل إن الاعتزاز هذا يصبح ظاهرة مرضية إذا ظل مجرد كلام يـردد، وشـعارات ترفع، وصيحات تتعالى، لسرد الأمجاد، وتعظيم الأجداد، ثم لا نفعل نحن شـيئًا، ولا نخطو خطوة إلى الأمام. وكثيرًا ما تمثلنا بقول الشاعر:

كن ابـن مـن شـئت واكتسـب يغنيـك محمـوده عـن النسـب
إن الفتـى مـن يقـول: هأنـذا ليس الفتى من يقول: كـان أبي!

وإنا نخشى أن يقول لنا قائل، ونحن نفخر بمناقب آبائنا ومـآثر أسـلافنا – مـا قاله شاعر آخر:

لئن فخرت بآبـاءٍ ذوي حسـب لقد صدقت، ولكن بئسما ولدوا!

ماذا يغنينا أن نتحدث عن أبي بكر الصديق، وليس لنا قوته ويقينه؟

وماذا يغنينا أن نتحدث عن عمر الفاروق، وليس لنا زهده وعدله؟

وماذا يغنينا أن نتحدث عن عثمان ذي النورين، وليس لنا حياؤه وبذله؟

وماذا يغنينا أن نتحدث عن علي المرتضى، وليس لنا شجاعته وعلمه؟

وماذا يغنينا أن نتحدث عن الصحابة الكرام، ونحن لا نتخلـق بـأخلاقهم ولا نقتضي آثارهم؟

أو نتحدث عن الأئمة المجتهدين، ولا نجتهد كما اجتهدوا، ولا نقول الحق كـما قالوا، ولا نتقي اللَّه في علمنا كما اتقوه، ولا نتعلم منهم فقه الخـلاف إذا اختلفـوا،

وأدب الحوار والمناظرة إذا تحاوروا وتناظروا؟!

ونتحدث عن إنجازات الحضارة الإسلامية، ومنهجها العلمي الاستقرائي التجريبي، وأن الأوروبيين أخذوه عنها، واقتبسوه منها، ولكننا لا ننجز مثل ما أنجزوا، ولا بعض ما أنجزوا، كأن مجرد الاختيال والفخر بحضارتنا السالفة يجعلنا نحن متحضرين بالوراثة!

إنا – للأسف – نكثر الكلام، ونُقل العمل، ونكثر الحز ولا نقطع، وحسبنا أن يسمع الناس منا جعجعة ولا يرون منا طحنًا.

أخشى أن ينطبق علينا ما قال بعض السلف: «أنتم في زمن كثير فقهاؤه، قليل خطباؤه، كثير معطوه، قليل سؤاله. العمل فيه خير من العلم. وسيأتي عليكم زمان قليل فقهاؤه، كثير خطباؤه، قليل معطوه، كثير سؤاله، العلم فيه خير من العمل».

ويبدو أننا نحن في هذا الزمان الذي كثرت فيه «الخطابة» وقل فيه «الفقه» وكثر «السؤال» وقل «العطاء» وقدم فيه «العلم» على «العمل». مع أن العلم في الإسلام إنما يُراد للعمل، فلا معنى لعلم لا يثمر عملًا وعلم بلا عمل، كشجر بلا ثمر.

والحق أن الرسوخ في العلم لا يتصور أن يكون بغير ثمرة. إنما الخطر في «صورة» العلم، أو قشور العلم، الي يتمثل في الثرثرة والتفيهق دون أن يكون وراءه فقه أو بصيرة.

ما قيمة أن يحفظ المرء القرآن الكريم عن ظهر قلب، وربما يقرؤه بالقراءات السبع أو العشر، ولكن تفكيره ليس قرآنيًا، وخلُقه ليس قرآنيًا، وحياته أبعد ما تكون عن القرآن؟

ما قيمة أن يحفظ الإنسان صحيحي البخاري ومسلم، أو الكتب الستة أو التسعة أو الأربعة عشر[32]، ولكنه لا يتأدب بأدبها، ولا يهتدي بهداها، ولا ترى أثرًا لها في صلته بالله ولا علاقته بالناس؟

هل هو إلا نسخة زادت من هذه الكتب؟

وما يقال عن الإنسان الفرد يقال عن الجماعة والأمة.

ما قيمة أن يكون لدى الأمة تراث حافل، وكنوز من الثقافة والمعرفة لا تُقدر بملء الأرض ذهبًا، ولا تملك أمة من الأمم عُشر معشار ما تملك من تراث ثقافي ... ومع هذا لم تُحول هذا التراث إلى حاضر معيش، يسري في كيانها، ويتغلغل في وجودها الظاهر والباطن، ويتفاعل مع كل ذرة فيها، فتمتصه وتهضمه وتتمثله، ويغدو جزءًا من حياة يومها، بعد أن كان جزءًا من أمسها.

لقد ذم الله بني إسرائيل حين لم يعملوا بما عملوا، وقال لهم: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 44].

وضرب لهم مثل الحمار تبشيعًا لموقفهم مما حملوه ولم قوموا بحقه: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الجمعة: 5].

ومن الناس من يخاف من كل كلمة فيها «عودة» أو «رجوع» - ولو كان هو «الرجوع» إلى الله ﷻ - لأن العودة في رأيهم تعني السير إلى الخلف، وهم يتطلعون

---

(32) المقصود بالتسعة: الستة مع إضافة «موطأ مالك ومسند أحمد، وسنن الدارمي» أما الأربعة عشر فيضاف إلى التسعة: «مسند البزار وأبي يعلى ومعاجم الطبراني الثلاثة».

أبدا إلى الأمام.

ولكن العودة، ولو كانت سيرًا إلى الخلف، تكون مطلوبة، بل لازمة، إذا كان السير إلى الأمام لا يؤدي إلى الهدف المنشود. ما معنى أن تسير إلى الأمام مغربًا، وهدفك مشرق؟ إن كل خطوة إلى الأمام تبعدك عن هدفك، وتضيع جهدك في غير طائل، بل في عكس ما تريد. والحزم كل الحزم، والعقل كل العقل هنا: أن تقرر العودة، وتسير إلى الخلف، لأنك ابتداء مشيت في الطريق الغلط، وإلا كان الأمر كما قال الشاعر:

سارت مشرقة وسرت مغربًا شتان بين مشرق ومغرب!

وإذا سار الإنسان في طريق فوجده مسدودًا، ألا يعود متجهًا إلى الوراء، ليبحث عن طريق آخر؟

وإذا وجد أمامه حفرة لا يستطيع تخطيها، أو وجد علامة «ممنوع المرور» من هذا الاتجاه، ألا يتراجع ويغير طريقه؟

لماذا نكره «العودة» أو «الرجوع» إذا كان من ورائه تصحيح اتجاه، أو تقويم خطأ، أو تقريب من هدف؟

ومثل كلمة «العودة» تأتي كلمة «الأصول»، وأصل الأصول هو القرآن وما يبينه من السنة، وقد أصبحت كلمة «الأصول» اليوم كلمة مخوفة، والنسبة إليها – الأصولي أو الأصولية – نسبة ترتعد منها الفرائص، وتصطك لها الأسنان، وتقشعر منها الأبدان. وغدت كلمة «الأصولية» مقترنة بكلمات أخرى تكون اليوم «قاموس» التخويف من الإسلام وصحوته ويقظة أُمته. من هذه الكلمات الشقيقة: التطرف، والتعصب، والسلفية، والإرهاب.

وينبغي – نحن دعاة الوسطية الإسلامية – ألا ترهبنا هذه الكلمات التي يتخذون منها سيوفًا يسلونها أمام أعيننا، ملوحين بها، حتى نفر مذعورين، أو نهرب مختفين، وندع المجال لهم وحدهم ليعربدوا ويفسدوا، كما قال الشاعر:

خلا لك الجو فبيضِي واصفري ونقري ما شئت أن تنقري!

ينبغي أن يكون موقفنا ما عبر عنه الإمام الشافعي رضي الله عنه قديمًا، حين دافع عن آل البيت، فاتهم بالرفض – أي التشيع – فقال:

إن كان رفضًا حب آل محمد فليشهد الثقلان أني رافض!

ونحن نقول: إن كانت العودة إلى أصول الإسلام، والدعوة إلى تطبيق شريعته، والاحتكام إلى كتابه وسنته، والمناداة بوحدة أمته، أصولية عندكم، نحن أول الأصوليين، وأنا أقول هنا: اللهم أحييني أصوليًا، وأمتني أصوليًا، واحشرني في زمرة الأصوليين!

إن أول ما ندعو إليه تجاه هذه الكلمات الشائعة وأمثالها هو: تحديد المفاهيم، حتى لا تترك هذه الكلمات والمطلحات هلامية قابلة لأكثر من تفسير، وأكثر من مدلول، وكل من شاء يفسرها بما شاء، وفقًا لهواه، أو تبعًا لمذهبه، وبهذا تضطرب المعايير، ويخبط الناس خبط عشواء.

4 - **إحياء السلفية المجددة:**

ومما يكمل معنى العودة إلى الأصول والجذور: الحرص على التشبع بروح السلف الصالح لهذه الأمة. وعلى رأس السلف الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، وإحياء منهجهم في فقه أحكام الله في شرعه، وسننه في خلقه.

وأؤكد هنا أن الذي نريده: منهج السلف الكلي، وليس أقوال السلف الجزئية،

وفرق كبير بين الأمرين.

منهج السلف يعني: طريقتهم الكلية في فهم الدين والعمل به، والعمل له.

ومنهجهم – كما يبدو من استقراء أحوالهم وأقوالهم وأعمالهم – هو النظر إلى جوهر الدين لا إلى شكله، وإلى مقاصد الشريعة لا إلى حرفيتها، وإلى روح العمل لا إلى مادته، وتغليب اليسر على العسر، والتخفيف على الإعنات، كما يبدو ذلك في مسلك الخلفاء الراشدين المهديين، الذين أُمرنا أن نتبع سنتهم.

أما الأقوال الجزئية، فهذه تتأثر بظروف الزمان والمكان والعوائد والأحوال. وهي تتغير بتغير موجباتها.

ولهذا قد ندع بعض أقوال السلف، لأنها كانت ملائمة لهم، ولم تكن ملائمة لنا، مثل الجهاد بالخيل، وإن ورد ذكرها في القرآن العزيز والأحاديث الصحاح؛ فقد غدت خيل العصر المصفحات والدبابات والمجنزرات.

ومثل ذلك إذا أفتوا أو قضوا وفق معارف عصرهم، مثل أقوالهم في مدة الحمل، التي وصلها بعضهم إلى أربع سنوات أو خمس أو سبع!!

إن السلفية الحقة لا تعني أن نسير سير السلف في الشكليات والجزئيات، المتطورة بتطور العادات.

لا يعني اتباع منهج السلف أن نجلس على الأرض كما كانوا يجلسون، وأن نأكل باليد كما كانوا يأكلون، وأن نركب الجمل في الأسفار كما كانوا يركبون، وأن نبني دورنا باللبن كما كانوا يبنون.

وما أظن أحدًا عاقلًا يقول بمثل هذا إلا من باب التشبه بالرجال، وتوطين

النفس على الزهد في الدنيا. ولا بأس بهذا، لتربية النفس، والسمو بالروح، ابتغاء رضوان اللَّه تعالى.

وربما وجد في محيط الصحوة الإسلامية اليوم من يتشدد في تقصير الثوب، أو إطالة اللحية، أو لبس النقاب، وذلك مهم في هذه المرحلة؛ لأنه من مظاهر التميز، ودلائل التحدي، وعلامات التحرر من رواسب عهد الاستعمار، وما خلف من أفكار ومشاعر وأنماط من السلوك.

بيد أن الخطأ أو الخطر يتمثل في التشديد والإلحاح على هذه المظاهر، واعتبارها هي لباب الدين، وتأثيم من يري رأيًا آخر فيها، وتصنيف الناس بين الولاء والبراء على أساسها.

إن السلفية الحقة – كما بينت في بعض ما كتبت[33] – لا تكون إلا مجددة، كما أن التجديد الحق لا يكون إلا سلفيًا. وهذا ما أثبته التاريخ.

فابن تيمية ومدرسته كانوا سلفيين، وكانوا مجددين حقًا، وأفكارهم التجديدية لا يجحد بها إلا مكابر.

والسيد رشيد رضا ومدرسته في عصرنا سلفيون مجددون، بلا جدال.

اتباع منهج السلف يوجب علينا أن نجتهد لعصرنا كما اجتهدوا لعصرهم، وأن نفكر بعقولنا لتنظيم حياتنا كما فكروا هم بعقولهم، وان نراعي زماننا وبيئتنا وأعرافنا وأحوال عيشنا، إذا أفتينا أو قضينا أو بحثنا، أو تعاملنا مع أنفسنا أو مع

---

(33) كتابي «الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي» تحت عنوان «الجميع بين السلفية والتجديد».

الآخرين، كما راعوا هم كل ذلك، وأن نقتبس من غيرنا ما ينفعنا كما اقتبسوا، وأن نبتكر في أمر دنيانا كما ابتكروا.

إن عمر بن الخطاب غير رأيه في بعض المسائل، وقضى فيها في عام برأي، وفي العام التالي برأي آخر، ولم ير في ذلك حرجًا، وقال: «ذلك على ما علمنا، وهذا على ما نعلم».

ولما روجع في مسألة من مسائل الميراث تتعلق بالإخوة الأشقاء والإخوة لأم، وقال له الأشقاء الذين حرموا حسب القواعد: هب أن أبانا كان حمارًا - أو حجرًا في اليم - ألسنا من أم واحدة؟! لم يملك إلا النزول على رأيهم، وسن بذلك سنة الاستحسان، وهو الخروج من صرامة القواعد إلى مرونة اعتبار المصالح ورعاية المقاصد.

وعمر بن عبد العزيز قال: تحدث للناس أقضية - أحكام وعقوبات - بقدر ما أحدثوا من فجور!

إن السلفية ظُلمت من خصومها وكثير من أنصارها، على السواء.

فخصومها صوروها جمودًا وتزمتًا وإعناتًا، ووقوفًا عند ظواهر النصوص، وأقوال الأقدمين، وخصوصًا ابن تيمية ومدرسته الحنبلية. فالسلفية عندهم لحية طويلة، وثوب قصير، ونقاب على وجه المرأة، وحرب على أهل التأويل والمخالفين بصورة عامة.

وقد ساعدهم على تثبيت هذه الصورة بعض دعاة السلفية الذين اهتموا بالشكل أكثر من الجوهر، وبالجزئيات أكثر من الكليات، وبالمختلف فيه أكثر من المتفق عليه، واعتبروا رأيهم هو الصواب الذي لا يحتمل الخطأ، ورأي من خالفهم

هو الخطأ الذي لا يحتمل الصواب.

إني معجب بالمدرسة السلفية التجديدية التي تتمثل في شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه الإمام ابن القيم، ولكن أخالفهما في بعض القضايا. وأنا بهذا أطبق – في واقع الأمر – منهجهما، فقد دعوا إلى الاجتهاد لا التقليد، ولو قلدتهما لخالفت منهجهما.

5 – **الانتفاع الواعي بتراثنا:**

ومن دلائل الأصالة: أن نجتهد في الانتفاع بتراثنا الغني، والغوص في خضمه الزاخر، لاستخراج لآلئه وجواهره، في الدين واللغة والأدب والعلم والفن، وسائر المواريث الثقافية البناءة، التي خلفها الآباء للأبناء، والأجداد للأحفاد.

ولا يتصور من أمة عريقة في الحضارة والثقافة أن تهمل تراثها وتاريخها الأدبي والثقافي، وتبدأ من الصفر، أو من التسول لدى الغير؛ فهذا لا يقبله لنفسه فرد ولا جماعة؛ لأن تسول الأغنياء رذيلة تنكرها الأخلاق، وجريمة يعاقب عليها القانون.

لكن كلمة «التراث» مثل كلمات أخرى كثيرة في هذا المجال، كثيرًا ما أُسيء فهمها، ووضعت في غير موضعها. حيث لم يتحدد المراد منها تحديدًا يزيل اللبس والغشاوة عنها.

ذلك أن التراث يحتوي الحق والباطل، والصواب والخطأ، والسمين والغث، كما لا يخفى على كل من درس شيئًا من هذا التراث. فما المراد بالانتفاع به هنا؟

لقد حفل التراث بالطيب من القول، والجيد من العلم، كما امتلأ بالخبيث والردئ.

حتى الكتاب الواحد، تجد فيه حقائق سبقت الزمن، ،أباطيل كأباطيل العجائز.

وتجد العالم الواحد يحلق كثيرًا فيبدع، ويهبط أحيانًا فيخرف، أو على الأقل يقبل الخرافة ويصدقها.

كنت أقرأ في «تاريخ الطبري»، وهو إمام جليل في التفسير والحديث والفقه والقراءات وغيرها، فأجده يقبل روايات يرفضها العقل والمنطق، ولكنه يعتذر إلينا بأنه أدى إلى من بعده ما أداه إليه من قبله، فهو ناقل وليس بمستنبط، وحسبه أنه أسند كل رواية إلى قائلها، وإن لم يتعرض للسند بتعديل ولا تجريح، كما فعل في كتب الفقه والحديث.

وقد رأيته يرجح أن زمان الدنيا منذ خلق اللَّه آدم إلى أن تقوم الساعة سبعة آلاف سنة، وروى أثرًا في ذلك عن ابن عباس، وأيد ذلك بآثار وأحاديث أخرى.

وهذا وأمثاله إنما هو من الإسرائيليات التي أشاعها أمثال كعب الأحبار ووهب بن منبه، وربما نقله عنهم ابن عباس إن صاح ذلك عنه، وما أظنه صحيحًا.

ولا يكاد يسلم مفسر أو محدث أو فقيه أو متكلم أو فيلسوف، من أقوال وآراء يراها بعقله أو ينقلها عن غيره، أثبت العلم ومقرراته اليوم أنها من جملة الأساطير.

ومن ذلك كلام الفلاسفة الكبار عن العناصر الأربعة، أو عن الأفلاك، أو عن شكل الكون، ومركز الأرض منه، أو غير ذلك، مما أبطلته علوم العصر ـ ووثباتها الهائلة، حتى غدا تلميذ المدرسة يعرف عن الأرض والأفلاك أكثر وأصح مما كان يعرفه الفلاسفة العظام المشاهير.

وفي التراث أشياء لم يثبت خطؤها، ولكن لم تثبت جدواها، أو لم تعد الحاجة إليها باقية، كما كانت من قبل؛ وذلك مثل بعض مباحث علم الكلام المتفلسف،

كـ «المواقف» للإيجي، وشرحه للجرجاني، و «شرح المقاصد» للتفتازاني، و «الطوالع» للبيضاوي وأمثالها. فهذه المباحث العميقة المجهدة، لم تعد الحاجة إليها قائمة، ولم تعد تخاطب الناس بلسان العصر، وبعض مباحثها أمسى غير ذي موضوع، وبعضها تجاوزه العلم أو أبطله. وينبغي وضع علم كلام آخر يُعبر عن عصرنا، ويواجه تياراته، ويحل مشكلاته، يكون عمدته القرآن والعلم الحديث.

وفي علم الفقه مباحث مستفيضة عن العتق وما يتصل به من ابواب المدبر وأم الولد والمكاتب وغيرها، مما لم تعد الحاجة إليها قائمة أيضًا. وفيه أقوال تحمل طابع زمانها ومكانها، نجمت في عصور التقليد، لا تلزمنا اليوم في شيء، إلا من باب الدراسة التاريخية.

وفي علم التصوف شطحات ونتوءات في الفكر والتصور - كالحلول والاتحاد - تناقض صفاء التوحيد الإسلامي، وأخرى في السلوك والعمل - كالمبالغة في الزهد والتوكل - تنافي وسطية الخلق الإسلامي.

وفي كتب الأدب والشعر أشياء تجاوزت الدين والخُلُق والعُرف والذوق، كالغزل في الذكور، والحكايات الهابطة.

وكل هذا تراث، فهل هذا هو المقصود من التراث الذي أقيمت مراكز ومؤسسات وإدارات لإحيائه ونشره وتقريبه للاس؟

وإذا قلنا: الانتفاع بالتراث، فهل يعني هذا أن نقبله كله بحقه وباطله، وعلمه وجهله؟!

إننا لسنا مع الذين يضفون القدسية أو العصمة على كل ما مضى، ولا مع خصومهم الذين ينأون بجانبهم عن كل موروث، لا لشيء إلا لأنه قديم، ولكن

لا بد لنا من التخير والانتقاء. وخصوصًا في مجال التربية والتثقيف، أو مجال الدعوة والتوجيه، أو مجال الحكم والتشريع. ولهذا أشرنا من أول الأمر: أن المطلوب هو الانتفاع الواعي بالتراث، لأن الوعي هو الذي يميز بين ما يصلح وما لا يصلح.

الإسلام فوق التراث:

وأود أن أنبه هنا على حقيقة هامة يغفلها بعض المعاصرين من الكتاب العلمانيين، أو يفهمونها على غير وجهها، وهي: الخلط بين الإسلام والتراث، خلطًا - أحسبه مقصودًا - بحيث يوهم أن أحدهما يعني الآخر. وهذا ليس بصحيح؛ فالإسلام ليس مجرد تراث يؤخذ منه ويترك، شأنه شأن شعر امرئ القيس، أو أبي نواس، أو كتاب الأغاني أو ألف ليلة وليلة.

إن اعتبار الإسلام العظيم من جملة التراث تهوين من شأنه، وحط من قدره، وتضليل للقارئ أو السامع عن حقيقته. والواجب أن يعبر عن الإسلام باسمه الصريح، كما ارتضاه الله لنا: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: 3].

إن التراث - كما بينا - كلمة واسعة، تشمل الجد والهزل، والصواب والخطأ، الحقيقة والخرافة، والصدق والكذب، والعلم والجهل، والروائع والهوابط، من أصول الشافعي وتصوف الغزالي، إلى مجون امرئ القيس وخمريات أبي نواس، وشعر الغزل في الذكور،والحكايات المرذولة، والإسرائيليات المردودة، والأحاديث الموضوعة، والآراء الفاسدة. فأين هذا من وحي الله تعالى الذي يتمثل في الإسلام؟!

وإذا كان بعضنا يصر على أن يدخل الإسلام في التراث، فإن أول واجب هنا هو التفريق بين المستوى الإلهي والمستوى البشري في التراث، والأول هو المعصوم الذي

دل عليه محكم القرآن والسنة. وهو الذي نطلق عليه: الإسلام؛ وهو الـذي يُتلقـى بالسمع والطاعة: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: 36].

أما الثاني فهو صنعة العقل البشري في مجالات العلم والفلسفة والأدب والفـن، بفروعها المختلفة، وألوانها المتنوعة، وفيها ما في كل عمل إنساني من قصور البشر، وأهواء البشر، وأوهام البشر، وتأثرهم بالزمان والمكان، وشتى الظروف والمؤثرات المادية والمعنوية.

ويدخل في هذا عمل العقل الإسلامي في فهم الجانب المعصوم ممـا قـد يسـمى التراث؛ وهو ما يشمل علوم التفسير، وعلوم الحديث، والفقه وأصوله، والكـلام، والتصوف، وهي علوم تتسع مسائلها – أو أكثرهـا – للأخـذ والـرد، والترجـيح والتضعيف.

ولا غرو أن تعددت المدارس والمذاهب: في التفسير ما بين الرواية والدراية، وفي الفقه ما بين أهل الرأي وأهل الأثر، ومدسة الظواهر ومدرسة المقاصـد. ومـا بـين طريقة المتكلمين، وطريقة الحنفية في أصول الفقه، وطريقة من يجمـع بيـنهما. وفي الكلام ما بين المقدمين للنقل على العقل، وخصومهم، وفي التصوف ما بين مدرسة التصوف التربوي الأخلاقي، ومدرسة النظريات الحلولية والاتحادية.

إن الإسلام – المتمثل في محكمات القرآن والسنة – فوق التراث، بل هو الحكـم على التراث بالقبول أو الرد، فهو المعيار الذي لا يخطئ، والهدي الذي لا يضل.

ومع هذا المعيار النقلي معيار آخر عقلي، ترد إليه الأمور بجـوار الـوحي، وهـو «الميزان» المذكور في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الشورى:

17]، وقوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: 25].

وبهاتين الآيتين استدل الفقهاء الذين يحتكمون إلى القياس، مبينين أن النص الصريح لا يناقض القياس الصيح، وبعبارة أخرى؟ لا تناقض بين صحيح المنقول وصريح المعقول.

يقول الإمام ابن القيم: «إن اللَّه أنزل الكتاب والميزان، فكلاهما في الإنزال أخوان، وفي معرفة الأحكام شقيقان؛ فلا تناقض دلالة النصوص الصحيحة، ولا دلالة الأقيسة الصحيحة، بل كلها تتصادق متناصرة، يصدق بعضها بعضًا، ويشهد بعضها لبعض»[34].

قراءة مستبصرة للتراث:

وبهذا نستطيع أن نقرأ الترث قراءة مستبصرة، نقرؤه ونحن نقف على أرض صلبة، نقرؤه ومعنا هاديان من عند اللَّه: هادٍ من خارجنا، وهو الوحي، وهادٍ من داخلنا، وهو العقل.

نقرأ شعر الجاهليين إن شئنا، فنرفض منه نضح الوثنية، ومجون الجاهلية، وحميتها، ونأخذ بعد ذلك ما وسعنا الأخذ، من روائع التصوير، وبدائع التعبير، عن النفس والطبيعة والحياة، ونقتبس غوالي الحكم، التي سارت مسير الأمثال، كقول طرفة في معلقته:

إذا القوم قالوا: من فتى؟ خلت عُنيتُ، فلم أكسل، ولم أتبلد

(34) «إعلام الموقعين» (1/ 369) بتحقيق عبد الرحمن الوكيل. نشر دار الكتب الحديثة.

وقوله:

ستبدي لك الأيام ما كنت ويأتيك بالأخبار من لم تزود

ونقرأ شعر الإسلاميين، فنجد الكثير الطيب مما ينفع الناس ويمكث في الأرض، ونجد القليل الضار، من المديح المسرف والهجاء المقذع، والعصبية القبلية، والمجون المكشوف، والشك المتحير، وما أشبه ذلك، فنعرض عنه.

نقرأ أبا العلاءُ، ونستمتع بروائع شعره، وهو يغوص في أعماق النفوس، وأغوار الحياة والمجتمع، وينقدها ويسخر منها، كقوله:

ولما رأيتُ الجهل في الناس فاشيًا تجاهلت حتى ظن أني جاهل

فوا عجبا كم يدعي الفضل ووأسفا كم يدعي النقص

ولكنا لا نأخذ نظرته التشاؤمية في مثل قوله:

هذا جناه أبي علي وما جنيتُ على أحد!

وقوله:

وإذا أردتم للبنين سعادةً فالخير أجمع تركهم في الأظهر!

يعني: قطع النسل وعدم الإنجاب!

نقرأ ابن سينا ونقتبس منه، فيلسوفًا وعالمًا وطبيبًا، ولكنا ننقد ما حاد فيه عن منهج القرآن والسنة حيادًا بواحًا عندنا فيه من اللَّه برهان، في «إشاراته وتنبيهاته» أو في «شفائه» أو في «رسائله».

بل نقرأ حجة الإسلام الغزالي وننهل من تراثه الرحب، ونحذر من بعض ما تضمنت كتبه من غلو الصوفية، أو من معارف أثبت علم العصر بطلانها، أو ما

استند إليه من الأحاديث الواهية والموضوعة والتي لا سند لها.

ونقرأ شيخ الإسلام ابن تيمية، وما خلف من كتب كبيرة، ورسائل متوسطة وصغيرة، وفتاوى متنوعة، ومباحث مستفيضة في الأصول والفروع، والمعقول والمنقول، فنغترف منها، وننتفع بها، ولكنا نخالفه فيما لا نقتنع به في العقليات والنقليات، وفي بعض ما بالغ فيه، كإنكار المجاز في القرآن واللغة، وننقده كما نقد هو من قبله، ونقول ما قال تلميذه الذهبي: شيخ الإسلام حبيب إلينا، ولكن الحق أحب إلينا منه.

ونفعل ذلك مع النووي وابن القيم وابن حجر وابن الهمام وابن الوزير والقرافي والشاطبي وابن خلدون والدهلوي والشوكاني وغيرهم. نستفيد منهم، ولكن نفكر كما فكروا، ونجتهد كما اجتهدوا.

نقرأ التفسير، ونحذر من الإسرائيليات، والقوال الفاسدات.

ونقرأ الحديث، ونحذر من الموضوعات الواهيات.

ونقرأ التصوف، ونحذر من الشطحات والتطرفات.

ونقرأ علم الكلام، ونحذر من الجدليات والسفسطات.

ونقرأ علم الفقه، ونحذر من الشكليات والتعصبات.

نقرأ هذه العلوم كها من مصادرها الأصيلة، ثم من مراجعها الشارحة، لنستلهمها ونستهدي بها، ونستضئ من مشكاتها، ونأخذ منها ما هو أرجح دليلًا، وأهدى سبيلًا، أي لتكون منارًا هاديًا يسدد مسيرتنا، لا قيدًا ثقيلًا يغل حركتنا.

وإذا كان هذا موقفنا من التراث ذي الصبغة الدينية وعلومه المأثورة، وهو

موقف التخير والانتقاء، عد التحصيل والارتواء، فمن باب أولى أن يكون هذا موقفنا من سائر معارف التراث العلمي والأدبي والفني.

وينبغي لنا أن ننهل من هذا التراث بكل معارفه، وكل ألوانه، وكل مدارسه، وكل مذاهبه؛ لا أعني الناشئة الصغار، الذين ينبغي أن يُحموا من السباحة في الأعماق خشية أن يغرقوا، وإنما أعني أهل العلم وطُلاب التبحر والتعمق فيه. كما حكى الإمام الغزالي عن نفسه في كتابه «المنقذ من الضلال»، وكما حكى الإمام أبو إسحاق الشاطبي عن نفسه في كتابه «الاعتصام»[35].

لقد كان حَبْر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يحفظ الكثير الكثير من شعر الجاهلية، ويحتج به في تفسير القرآن، كما رووا أنه كان يحفظ رائية ابن أبي ربيعة، على ما فيها من مجانة مرذولة.

وكانت عائشة رضي الله عنها، تحفظ الكثير من الشعر الجاهلي، وتستشهد به، وتروي من قصص الجاهلية، وقد روى البخاري وغيره عنها حديث الزوجات الاثنتي عشرة، وما وصفت به كل واحدة زوجها، وهو المعروف بحديث «أم زرع»، وقد استمع الرسول ﷺ إليها، هي تحكي هذه القصص، ولم ينكر عليها، أو يضق بذلك صدرًا.

إننا إذا تحصنا بالكتاب والميزان، خضنا لُجج التراث، دون أن نخشى الغرق أو الضياع: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: 101].

---

(35) انظر كلام الغزالي في كتابنا «الغزالي بين مادحيه وناقديه» (ص 26، 27) وكلام الشاطبي في بحثنا «التربية عند الشاطبي» المنشور في «حولية كلية الشريعة» بجامعة قطر: العدد التاسع.

قراءات متحيزة أو موجهة للتراث:

ومن المتحدثين عن التراث: من يقرؤه، أو يدعو إلى قراءته قراءة لا توصف إلا بأنها متحيزة: تنحاز لبعض المدارس دون بعض، ولبعض الاتجاهات دون بعض، ولبعض الشخصيات دون بعض؛ فهم يأخذون من التراث ويدعون، ويحذفون منه ويُبقون، وفق أهوائهم وميولهم الخاصة. وهم يفسرون ما يأخذونه، كما يحلو لهم، اتباعًا للهوى، لا احتكامًا إلى كتاب أو ميزان مما أنزل الله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الشورى: 17].

من هؤلاء من ينحاز إلى «المدرسة الفلسفية» وخصوصًا «المدرسة المشائية» الإسلامية، التي جعلت أكبر همها التوفيق بين الفلسفة والدين، ولكنها اعتبرت الفلسفة أصلًا، والدين تبعًا؛ فإذا تعارضا أول الدين ليتفق مع الفلسفة. ويمثل هؤلاء الكندي والفارابي وابن سينا ومن سار على دربهم.

ومنهم من ينحاز إلى «المدرسة الاعتزالية»ن ويعتبر المعتزلة هم «المفكرين الأحرار» في الإسلام. ويذرف الدموع السخينة على هزيمتهم الفكرية أمام أهل السنة[36]، بعد أن كانت لهم الدولة خلال عدة عقود. وحديث هؤلاء عن المعتزلة يوهم أنهم جماعة «عقلانية» محضة، لا تذعن لنصوص الدين، ولا تخضع لأحكام الشرع. وهو تصوير غير صحيح لموقف القوم، وخصوصًا في مجال الفقه والأحكام العملية، التي كثيرًا ما تبعوا فيها المذهب الحنفي.

ومنهم من ينحاز إلى شخصيات معروفة دون غيرها، مثل ابن رشد، وابن

---

(36) انظر تعليقنا على ذلك في كتابنا «المرجعية العليا في الإسلام للقرآن والسنة» فصل «تقديم العقل على الشرع» (ص 331 – 354) نشر مكتبة وهبة، القاهرة.

حزم، وابن عربي، وابن خلدون. وكلامهم عن هؤلاء وأمثالهم يصورهم بصورة «العقلانيين» الخلصاء، الذين يرفضون النصوص إذا خالفت مقرراتهم العقلية.

وهذه قراءة متحيزة لهؤلاء الأعلام، فكتبهم تدل بوضوع على أنهم - ككل المسلمين - لا يملكون أمام محكمات النصوص، إلا أن يقولوا: سمعنا وأطعنا.

فابن رشد وابن خلدون كلاهما قاضٍ شرعي وفقيه مالكي، وابن رشد هو صاحب «بداية المجتهد ونهاية المقتصد» في الفقه المقارن، الذي يتجسد فيه احترام المصادر والأدلة الشرعية كلها، من الكتاب والسنة والإجماع والقياس.

وابن حزم وابن عربي كلاهما فقيه ظاهري، يأخذ بظواهر النصوص وحرفيتها في مجال الفقه واستنباط الأحكام، وإن كان على ابن عربي اعتراضات جمة في تصوفه الفلسفي.

ولكن هؤلاء العصريين يستنطقون تلك العقول الكبيرة - على اختلاف اهتماماتها وتخصصها - بما يحبون هم أن تنطق به، لا بما نطقت به بالفعل، فهم يريدونها مترجمة عنهم، معبرة عن فكرهم، لا عن ذاتها وفكرها الخاص.

هؤلاء يستلهمون التراث الخاص ما يبرون به الواقع لحاضر. وهو ما لاحظه باحث جاد - د. فهمي جدعان - يرى أن عملية «الاستلهام» هذه ليست إلا عملية تسويغ لقيم الحاضر، بإسقاط غطاء تراثي عليها، وأن الذي يحدث عمليًا أن الحاضر ه الذي يفرض قيمه، ويلزم بها[37].

ومثل هؤلاء من يدعو إلى «إعادة قراءة التراث» وفق مناهج معاصرة، ارتضاها

---

(37) انظر: «نظرية التراث» للدكتور فهمي جدعان (ص 26) طبع دار الشروق، عمان.

أصحابها، تبعًا للمدارس التي ينتمون إليها.

وهذا التوجه شائع عند المثقفين الذين مارسا خبرة ما بمناهج العلوم الإنسانية الحديثة، وبالفلسفات المعاصرة الغربية، فكل واحد من هؤلاء يقرأ التراث وفقًا لمنهجه المحدد، ويفسره ويوجهه تبعًا لإطاره المرجعي، فهذا يقرؤه قراءة عقلانية، وثانٍ قراءة لسانية، وثالث قراءة مادية، ورابع قراة براجماتية، وقراءات أخرى معرفية ووظيفية وبنيوية، على آخر التصنيفات التي يتعالم بها أسارى الفكر الغربي بمختلف تياراته. والتي تحاول «أدلجة» التراث، وتوظيفه لخدمة أفكار مدرسة معنية، وتوجيهه توجيهًا قبليًا واضحًا، فهي ليست قراءة للفهم، وإنما للفعل والتأثير؛ بل «للتثوير» عند بعضهم.

والحقيقة – كما يقول الدكتور جدعان – : أن هذه «الأدلة» لم تكن تعني في نهاية التحليل إلا شيئًا واحدًا، هو: أن الحاضر عاجز – بإمكاناته وقدراته الكامنة والصريحة – عن إحداث التغيير المنشود. وأن التراث الذي يشد الناس إليه، هو الذي يملك القوة السحرية على التغيير، وذلك – بطبيعة الحال – بعد توجيه قراءته الوجهة التي تخدم الأهداف المنصوبة[38].

لقد رأينا باحثًا مثل الدكتور محمد أركون ينصب من نفسه حكمًا على التراث، يحكم فيه كحكم نمروذ «يحيي ويميت» فهو يُبقي منه ما يريد، ويحذف منه ما يريد، تحت ستار ادعاء عريض، هو النقد أو التجديد. وهو يقول: «لا بد من وضع التراث – كله – موضع البحث والنقد والتقويم في ضوء الاكتشافات الحديثة». ولهذا نراه لا يكتفي بأن ينقد صحيحي البخاري ومسلم، بل يريد أن ينقد

(38) المصدر السابق (ص 28) وما بعدها.

مصحف عثمان! أي المصحف الذي لا يعرف المسلمون غيره!

هكذا قال الدكتور أركون في ورقته التي قدمها إلى ندوة «التراث وتحديات العصر» عن «التراث: محتواه وهويته – إيجابياته وسلبياته»[39]، والتي كان فيها الإطراء للمستشرقين، وغمز كل العلماء والباحثين المسلمين، من المستقدمين والمستأخرين، حتى الأفغاني ومحمد عبده، اللذين يتهمهما بعض الناس بالإسراف في التجديد.

وبحق ما عقب به الدكتور جلال أحمد أمين حين قال: إنني أتعجب أشد العجب من أن بعض المعلقين وصف ورقة الدكتور أركون بأنها تمثل مساهمة في اتجاه تجديد التراث، فإذا كان هذا تجديدًا للتراث، فكيف يا تُرى يكون قتله أو تحقيره؟![40].

❋ ❋ ❋

الفصل الثالث
لكني نكون معاصرين حقًا

- **ماذا تعنى المعاصرة؟**
- **ضرورة معرفة العصر.**

---

(39) انظر: الكتاب الصادر عن ندوة «التراث وتحديات العصر» (ص 115) وما بعدها.
(40) المرجع السابق (ص 203)، وانظر «تعليقات المناقشين» من (ص 200 – 205).

- العلم والتكنولوجيا
- النظرة المستقبلية.
- أصناف الناس أمام الماضي والمستقبل.
- دعوى التصادم بين التفكير المستقبلي والتفكير الديني.
- التعلق بالنموذج النبوي والصحابي.
- حاجة البشر على نموذج.

❊ ❊ ❊

ماذا تعني المعاصرة؟

يراد بالمعاصرة: أن يعيش الإنسان في عصره وزمانه، في أفكاره وقيمه وسلوكياته، في انتصاراته وهزائمه، في معمعة أحداثه، ومع أهله الأحياء المتحركين، يفكر كما يفكرون، ويعمل كما يعملون. لا يعيش في عصر ـ مضى ـ بما يحمل من تصورات وعقائد، ومن قيم ومفاهيم، ومن أخلاق وتقاليد، ومن شعائر وشرائع، قد تكون صالحة للعصر وقد لا تكون.

جوهر المعاصرة – إذن – هو معايشة الأحياء لا الأموات، والواقع الماثل لا الماضي الزائل. ولهذا مظاهره ودلائله، التي تقتضيها المعاصرة.

وهذا الإجمال له تفصيل، نبين عنه في هذا الفصل.

1 – **ضرورة معرفة العصر:**

أول دلائل «المعاصرة» أو مقوماتها: أن نعرف «العصر» الذي نعيش فيه معرفة دقيقة وصادقة، فإن الجهل بالعصر، أو معرفته على غير حقيقته يفضي ـ إلى عواقب وخيمة، كالطبيب الذي يصف دواءً جيدًا، ولكنه قد يقتل مريضه أو يضاعف عليه سقمه، إذ لم «يشخص» داءه تشخيصًا دقيقًا، أي لم يعرفه كما ينبغي.

إن بعض الكتاب اللامعين في عالمنا العربي والإسلامي، يتحدثون عن التفكير المادي وكأنهم في القرن الثامن عشر، مغفلًا الاتجاهات الإيمانية التي برزت لدى الكثيرين من علماء ومفكري القرن العشرين[41].

---

(41) انظر في ذلك كتاب الأستاذ العقاد «عقائد المفكرين في القرن العشرين»، وكتاب «الله يتجلى

ومنهم من لا يزال يتشبث بالماركسية وقد سقطت قلاعها العملية، وحتمياتها النظرية، في مسقط رأسها، وديار مجدها.

ومنهم من لا يبرح ينادي بالقومية، وقد ذهبت ريحها منذ زمن بعيد، وبات الناس يبحثون عن تكتلات أكبر وأرحب، تحقق مصالحهم، وتدرأ أخطار المنافسين عنهم.

ومنهم ... ومنهم ...

ولقد قال المستشار طارق البشري في حديثه عن «الإسلام والعصر»: إن المشكلة ليست في جهلنا بالإسلام، بل المشكلة في جهلنا بالعصر!

وهو يوجه كلامه إلى العلمانيين ودعاة التغريب والتحديث، فهو يعيب عليهم عدم معرفتهم بالعصر الذي يتباهون بالانتماء إليه، أكثر مما يعيب عليهم عدم معرفتهم بالإسلام، فهذا مفروغ منه، وهم لا يدعونه لأنفسهم.

وإذا كان من دعاة التحديث من يجهل العصر، فإن في دعاة الإسلام من هو أكثر جهلًا به، لأنه يعيش في الماضي وحده، ويسكن في صومعة التراث، وقد أغلق عليه بابها، فلا يكاد يرى أو يسمع أو يحس شيئًا مما حوله. ويا ليته يعيش في عصور التألق والازدهار. بل كثيرًا ما يعيش في عصور التخلف والتراجع. فهو يفكر

في عصر العلم» بأقلام ثلاثين عالمًا عصريًا، كتب كل منهم مقالًا: كيف اهتدى إلى الله عن طريق تخصصه، ترجمة الدكتور الدمرداش سرحان، ونشرته دار إحياء الكتب العربية، بالتعاون مع مؤسسة فرانكلين. وانظر كذلك: كتاب «العلم يدعو إلى الإيمان» تأليف أ. كريسي- موريسون، رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك، ترجمة د. محمود صالح الفلكي، وتقديم د. أحمد زكي، والشيخ أحمد حسن الباقوري.

بعقولهم، ويتحدث بلغتهم، ويحيا في مشكلاتهم، ويجيب عن أسئلتهم؛ فهو حي يعايش الأموات، أكثر مما يعايش الأحياء.

وربما اعتبر بعضهم موقفه هذا الشخصي معبرًا عن موقف الإسلام، وهذا هو الخطأ الشنيع، سواء من الشخص أو ممن يحلل موقفه.

فالإسلام ينكر بشدة على الذين يجمدون على الماضي وحده، متبعين للآباء والأجداد، وإن كانوا على باطل، ومن عباراته القارعة لهم: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 170]، ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة:104]، ﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ [الزخرف: 24].

وينكر الإسلام على الذين يجترون الذكريات الأليمة، ويعيشون في دوامتها الحزينة، فتنغص عليهم حياتهم، دون أن يصنعوا شيئًا لمستقبلهم. وفي ذلك يقول القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: 156].

وفي مثل ذلك يقول الرسول الكريم: «**احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، ولا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا، بل قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن «لو» تفتح عمل الشيطان**»(42).

---

(42) رواه مسلم في كتاب «القدر» عن أبي هريرة، حديث رقم (2664)، باب: في الأمر بالقوة وترك العجز، والاستعانة بالله.

والمراد بـ «لو» هنا «لو» المتمنية المتحسرة، وهي التي يقول فيها الشاعر:

ليت شعري، وأين مني «ليت» إن «ليتا» «لوّا» عناء!

ويقول: الآخر:

ولـيس يراجـع مـا فـات منـى بـ «لهف» ولا بـ «ليت» ولا «لـو

وقال بعض السلف: «الاشتغال بوقت ماضٍ تضييع وقت ثانٍ».

المطلوب - إذن - أن يعيش الإنسان المؤمن القوي في حاضره، منطلقًا إلى مستقبله، ولكي يحسن العيشة في حاضرة وزمانه، وبعبارة أخرى: عصره، ينبغي أن يعرفه، حتى يتعامل معه على بصيرة.

وفي هذا ورد حديث أخرجه ابن حبان عن أبي ذر، وفيه: «**ينبغي للعاقل أن يكون عارفًا بزمانه، حافظًا للسانه، مقبلًا على شأنه**»[43]، ومن الكلمات المأثورة: «**رحم اللَّه امرءًا عرف زمانه، واستقامت طريقته**»[44].

وهذه المعرفة قد تكون مطلوبة طلب استحباب، أو طلب وجوب، فإذا كانت هذه المعرفة وسيلة لازمة لأداء واجب، كانت هي واجبة كذلك. وفقًا للقاعدة الفقهية الشهيرة: «ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب».

خذ مثلًا: الفقيه والمربي والداعية، لا يستطيع أحدهم أن يصل إلى الصواب

---

(43) رواه ابن حبان في «صحيحه» - الجزء الثاني، حديث رقم (361)، طبع الرسالة - عن أبي ذر أن هذا مما كان في صحف إبراهيم، وإسناده ضعيف جدًا، وحسبه أن يكون من كلام بعض السلف.

(44) ذكره السيوطي في «الجامع الصغير» مرفوعًا عن ابن عباس، وفيه راوٍ متهم، وحسبه أن يكون من كلام ابن عباس. انظر: الحديث رقم (4440) من «فيض القدير» للمناوي.

والرشد في مجاله إذا كان يجهل عصره، ويخاطب أهله بلغة عصر آخر، فلا مراء أنهم لن يفهموا عنه. وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾ [إبراهيم: 4]، يفهم منه أنه كما يجب على صاحب الرسالة أن يتحدث بلسان قومه حتى يفهمهم ويبين لهم، يجب عليه أن يتحدث بلسان عصره، حتى يفهم أهله ويبين لهم، وإلا لم تقم عليهم حجة.

ولقد قرر فقهاؤنا المحققون: أن الفتوى تتغير بتغير الزمان والمكان، والعرف والحال[45]، فاعترفوا بأثر التغير الزماني، اعترافهم بأثر التغير المكاني، بل كثيرًا ما قدموا تغير الزمان على سائر التغيرات.

حتى إن «مجلة الأحكام العدلية» الشهيرة نصت في إحدى موادها على هذه القاعدة فقالت: «لا ينكر تغير الأحكام بتغير الزمان»[46].

ولهذا تغيرت بعض الفتاوي في عصر الصحابة عما كان عليه الحال في عصر النبوة، كما في قضية جمع المصحف، وجلد الشارب في عهد أبي بكر، وقضية قسمة الأرض المفتوحة، وجلد شارب الخمر ثمانين في عهد عمر، وقضية جمع الناس على مصحف واحد في عهد عثمان، والتقاط الإبل الضالة في عهده، وقضية تضمين الصناع في عهد علي وقوله: «لا يصلح الناس إلا ذاك».

وقد اختلفت الفتاوي في عصر التابعين عن عصر الصحابة.

---

(45) انظر كلام ابن القيم في أول الجزء الثالث من «إعلام الموقعين».

(46) انظر المادة (39) من مجلة الأحكام وشرحها للأستاذ علي حيدر في «دور الحكام شرح مجلة الأحكام» (1/ 43)، وانظر: تعليقنا عليها في كتابنا «شريعة الإسلام صالحة لكل زمان ومكان» (ص 132، 133).

واختلفت فتاوى عصر الأئمة المتبوعين عن عصر شيوخهم من التابعين وأتباعهم.

واختلف فتاوى أصحاب الأئمة وتلاميذهم عن فتاوى شيوخهم، وأئمتهم، لاختلاف العصر، رغم قرب العهد. وكثيرًا ما عبروا عن الخلاف بين أبي حنيفة وصاحبيه الشهيرين أبي يوسف ومحمد بقولهم: إنه اختلاف حجة وبرهان، بل هو اختلاف عصر وزمان؟[47].

معرفة الواقع من تمام معرفة العصر:

ومن تمام معرفة العصر: معرفة الواقع المعيش، والواقع المحلى «الوطني»، والواقع الإقليمي «العربي»، والواقع الإسلامي، والواقع العالمي.

وهذه المعرفة لازمة لكل من يريد تقويم هذا الواقع، أو إصدار حكم له أو عليه، أو محاولة تغييره.

وقد ذكر علماؤنا أن من واجب الفقيه أو المفتي أن يعرف الواقع قبل أن يفتي فيه بجواز أو منع، أو حل أو حرمة، فلا يكون كل بحثه وكل همه حول ما يجب أن يكون، مغفلًا ما هو كائن بالفعل، ولهذا قال العلامة ابن القيم: إن الفقيه هو من يزاوج بين الواجب والواقع.

وقبل ذلك قال الإمام أحمد في بيان ما يجب أن يتصف به المفتي، فذكر العلم والحلم ... إلخ. ثم قال: ومعرفة الناس. وهذه العبارة «معرفة الناس» تعبير عن

---

(47) انظر: ما كتبته عن عامل تغير الفتوى من «عوامل السعة والمرونة» من (ص 200 – 229) من كتابي «مدخل إلى دراسة الشريعة الإسلامية» – طبع مكتبة وهبة.

معرفة الواقع. وقد علق عليها ابن القيم بقوله: هذا أصل عظيم يحتاج إليه المفتي والحاكم، فإن لم يكن فقيهًا فيه، فقيهًا في الأمر والنهي، ثم يطبق أحدهما على الآخر، وإلا كان ما يفسد أكثر مما يصلح[48].

ولا تتم معرفة الواقع على ما هو عليه حقيقة إلا بمعرفة العناصر الفاعلة فيه، والموجهة له، والمؤثرة في تكوينه وتلوينه، سواء أكانت عناصر مادية أم معنوية، بشرية أم غير بشرية. ومنها عناصر جغرافية وتاريخية واجتماعية واقتصادية وسياسية وفكرية وروحية.

وتفسير الواقع كتفسير التاريخ، يتأثر باتجاه المفسر وانتمائه العقدي والفكري.

وقد حذرنا في كتابنا «الصحوة وهموم الوطن العربي والإسلامي» من النظرات: الجزئية، والمحلية، والآنية، والسطحية، والتلفيقية، والتبريرية.

وهذا ما ينبغي أن نحذر منه هنا أيضًا في بيان الواقع وتفسيره.

فعلينا أن نحذر من الاتجاه «الإطرائي» للواقع، ومحاولة تحسينه، وإبراز صورته سالمة من كل عيب، منزهة عن كل نقص، وغض الطرف عن العيوب الكامنة فيه، وإن كانت تنخر في كيانه، واتهام كل من ينقد هذه العيوب والآفات بأنه مشوش، أو مبالغ، أو متطرف.

ولنحذر كذلك من الاتجاه «التشاؤمي» الذي ينظر إلى الواقع بمنظار أسود، يجرده من كل حسنة، ويلحق به كل نقيصة، ولا يرى فيه إلا ظلمات متراكمة،

---

(48) نقلها ابن القيم في «إعلامه» (4/ 199). وانظر كذلك كتابنا «الاجتهاد في الشريعة الإسلامية» (ص47، 48) – طبع دار القلم بالكويت.

موروثة من عهود التخلف، أو وافدة مع عهد الاستعمار. حكومات خائنة - بلسان أهل الوطنية - أو كافرة - بلسان أهل الدين - وجماهير مضللة، وأقطار هي مجموعة أصفار!! وما يرجى من تغيير، أو يؤمل من إصلاح، فهو سراب يحسبه الظمآن ماء.

ومثل ذلك: الاتجاه «التآمري» في تفسير الواقع، الذي يرى وراء كل حدث - وإن صغر - أيديّا أجنبية، وقوى خفية، تحركه من وراء ستار، يهودية، أو صليبية، أو ماسونية، أو غيرها، ونحن لا ننكر أن هناك كيدًا خفيًا لهذه الأمة، يكيده لها أعداؤها الظاهرون والمستخفون - سنة اللَّه في خلقه - ولكن تضخيم ذلك بحيث يجعلنا «أحجارًا على رقعة شطرنج» يفت في عضدنا، ويوئسنا من أي توجه إيجابي لإرادة التغيير، ويريحنا بأن نشعر أننا أبدًا ضحايا من هو أقوى منا، ولا حل أمامنا غير الاستسلام للواقع المر. ومن ناحية أخرى يجعلنا هذا لا نعود على أنفسنا باللائمة ولا نحاول إصلاح ما فسد، وتدارك ما وقع.

إن أولى من تعليق أخطائنا على مشجب التآمر الخارجي، أن نردها إلى الخلل الداخلي، أي الخلل في أنفسنا قبل كل شيء. وهذا ما قرره القرآن بعد هزيمة غزوة أحد، حيث خاطب المسلمين فقال: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: 165].

وقريب من ذلك: الاتجاه «التنصلي» في تفسير الواقع، بمعنى أن أحدًا لا يريد أن يتحمل مسئولية ما في هذا الواقع من سوء وانحراف، فكل واحد، وكل فريق، يريد أن يحمل وزره على غيره؛ أما هو فلا ذنب له، ولا تبعة عليه.

الكل يشكو من الفساد، ولكن من المسؤول عن فساد الحال؟

جمهور كبير من الناس يحملون المسؤولية على العلماء، والعلماء يحملون المسؤولية على الحكام، والحكام يحملونها على الضغوط الخارجية أو الضرورات الداخلية.

والحق أن الجميع مسؤولون، كل حسب ما لـه مـن مكنـة وسـلطة: الجماهـير والعلماء، والمفكرون والمربون والحكام. وفي هذا جاء الحديث الصـحيح: «**كلكـم راع وكلكم مسئول عن رعيته**»[49].

ومن التفسيرات المحذورة للواقع: التفسير «التبريري» الذي يحـاول أن يضـفي على الواقع، ما يجعله مقبولًا، وإن حاد عن الحق وسواء السبيل، وفي هذا لـون مـن التدليس والتلبيس، بإظهار الواقع على غير حقيقته، وإلباسه زيًّا غير زيـه، كالـذي يلبس الخواجة الأوروبي جبة وعمامة، فيبدو وكأنه شيخ أزهري مسلم، وما هو من الإسلام ولا الأزهر في شيء.

إننا نريد معرفة واقع عصرنا وعالمنا عمومًا، وواقع أمتنا خصوصًا كما هـو، دون تحريف ولا تزييف، ولا تهويل ولا تهوين، ولا مدح ولا ذم، مستخدمين الأساليب العلمية الموضوعية في الكشف والرصـد والتحليـل، وفي هـذا مـا يسـاعدنا عـلى تشخيص الداء، ووصف الدواء.

إن خصومنا يعرفوننا تمامًا، من قمة رأسنا إلى أخمص قدمنا، بل نحن - كـما قـال الدكتور كمال أبو المجد في محاضرة لـه في جامعـة قطـر - : مكشـوفون لهـم حتـى النخاع.

فهل عرفنا نحن خصومنا؟ وأقصد بخصومنا: أصحاب المشـروع الحضـاري

---

(49) متفق عليه من حديث ابن عمر. انظر: «صحيح الجامع الصغير» برقم (4569)

المخالف لمشروعنا، وكل الخائفين منا، والطامعين فينا.

وإذا كنا لم نعرف أنفسنا كما عرفها غيرنا، فإنى لنا أن نستطيع بمعرفتهم؟

هل عرفنا «البعد الديني» في سياسة الغرب العالمية، وسياسته معنا على وجه الخصوص؟ وعلى الأخص مع إسرائيل؟[50].

هل عرفنا دور الكنيسة الحقيقي، وأصابعها المؤثرة في السياسة، برغم انفصال الدين عن الدولة؟

هل عرفنا ما ينفقه الغرب من مليارات وما يقوم به من جهود، في سبيل التنصير عامة، وتنصير المسلمين خاصة[51]؟

هل عرفنا أن الغرب المعاصر لم ينفصل عن تراثه، بل بني عليه؟ ولم يفعل ما يطالبنا به بعض «التقدميين» أو «الليبراليين» منا، وهو الانسلاخ من جلدنا، أي من تراثنا[52].

يقول المفكر المغربي الدكتور محمد عزير الحبابي: الغرب نفسه يتغير باطراد في صيرورة متصاعدة، فلا غرابة أن يعتمد على تراثه الخاص، عساه يحافظ على معالم ثابتة في هويته، وينفتح على ما يجري خارج مناطقه، دون تخوف من الذوبان. فمن

---

(50) انظر كتاب «البعد الديني في السياسة الأمريكية» للدكتور يوسف الحسن، من منشورات مركز دراسات الوحدة العربية.

(51) انظر كتاب «التنصير» وهو يتضمن الترجمة للبحوث التي قدمها كبار المبشرين البروتستانت في أمريكا إلى مؤتمر كلورادوا سنة 1978م، والخاص بـ «تنصير المسلمين في العالم»، وهو كتاب خطير يجب أن يقرأ.

(52) ؟؟؟

العبث أن نقلد الغرب في كل شيء علنا نلتحق بالمعاصرة، وفي الآن نفسه يرفض بعضنا الاقتداء به في المحافظة على أصالتنا، كما يحافظ هو على أصالته[53].

عصرنا بين الإيجابيات والسلبيات:

ولعصرنا خصائص تميزه عن غيره يجب أن ندركها ونستوعبها، بما فيها من إيجابيات وسلبيات.

فهو عصر العلم والتكنولوجيا.

وهو عصر الحرية وحقوق الإنسان، واستقلال الشعوب.

وهو عصر السرعة والقوة والتغيرات السريعة، والتطورات الهائلة.

وهو عصر التضام والالتحام، والظهور في كتل كبيرة.

وهو عصر التخيط والتنظيم لا الارتجالية والفوضى والتواكل.

وهو عصر اقتحام المستقبل، وعدم الاكتفاء بالواقع، فضلًا عن الانكفاء على الماضي.

وهذه كلها من إيجابيات العصر وإنجازاته، إذا صحت الأهداف، ووضعت الضوابط.

ولكن للعصر جوانب أخرى اقتضتها سنة اللَّه في هذا الكون، حيث تمتزج فيها الخبرات بالشرور، والمنافع بالمضار، واللذات بالآلام.

فهو عصر غلبة المادية والنفعية.

---

(53) انظر: كتاب «التراث وتحديات العصر» (ص 104).

وهو عصر تدليل الإنسان بإشباع شهواته.

وهو عصر التلوث بكل مظاهره.

وهو عصر الوسائل والآلات، لا عصر المقاصد والغايات.

وهو عصر القلق والأمراض النفسية، والتمزقات الاجتماعية.

المعاصرة بين الجبر والاختيار:

وإذا كان لعصرنا سلبياته كما له إيجابيته، فهل من مقتضى ـ المعاصرة أن نأخذ العصر بكل ما فيه، باعتباره وحدة لا تتجزأ؟ أم لنا حق الانتقاء والتخير؟

وهذا يقتضينا أن نسأل هنا سؤالًا مهمًا:

ما هو العصر؟ وما موقفنا منه؟

أهو قدر غالب لا مفر من الخضوع له، والانحناء لجلاله، ولا مفر لنا من أن نأخذه بعجره وبجره، وخيره وشره، وحلوه ومره؟

أم من حقنا أن نأخذ من العصر أحسنه وأمثله، وندع ما فيه مما لا يلائم عقائدنا وشرائعنا وقيمنا؟

إن «العصر» – في واقع الأمر – مثل «الوطن» هو الناس الذين يعيشون فيه، بأفكارهم ومعارفهم وأعرافهم ومشاعرهم، وأخلاقهم وأعمالهم، وأنظمتهم وثقافاتهم، بما فيها من صواب وخطأ، ومن استقامة وعوج، ومن خير وشر، ومن نفع وضر.

ومن حق الناس – بل من واجبهم – أن يميزوا بين الصواب في الفكر، والخير في السلوك، والنافع من العمل، في العصر، وبين الخطأ في الفكر، والشر في السلوك،

والضار في العمل، مما جاء به العصر، فيحروصوا على الجانب الأول، ويأخذوا بـه، ويجتهدوا في اجتناب الجانب الآخر ما وسعهم الجهد.

ولسنا هنا مع «الجبرية الزمانية» التي تعتبر الإنسان «وعـاء» يملـؤه العصر ـ بـما يشاء، وإن لم بشأ الإنسان.

كما أن هناك «جبرية مكانية» ترى الإنسان «مسيرًا» لبيئته الجغرافية، هـي التـي تحدد شخصيته، وتوجه فكره وسلوكه.

ونحن نرفض «الجبريات» كلها، التي تعتبر الإنسان مسيرًا لا مخيرًا، ومقهورًا لا مريدًا، سواء في ذلك «الجبرية الدينية» القديمة التي تجعل الإنسان كريشـة تحركهـا رياح الأقدار أم «الجبرية الاجتماعية» التي ترى الفرد دمية يحرك خيوطها المجتمع، أم «الجبرية السياسية» التي تشبع الآن وتجعل مجتمعاتنا كلها «أحجارًا عـلى رقعـة الشطرنج»!

إن الإنسان يتأثر – ولا ريب – ببيئته الخاصة والعامة، المادية والثقافية، كما يتأثر بعصره وزمانه، ولكنه لا يفقد إرادته واختياره أمام هذه المؤثرات، فقـد منحـه اللَّه من القوى والملكات ما يجعله قادرًا على حمل أمانة المسئولية، وتقرير مصيره بنفسـه وصنع يده: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾ [الأنعام: 104]، ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: 7].

ومن المعلوم أن من الناس من يعيش خارج عصره، فهو يهـرب منـه ليحيـا في الماضي القريب أو البعيد، وهربه من العصر إما لنفوره منه وكراهيته له، لما يشتمل عليه من أمور تهدد كيانه الاعتقادي أو الفكري أو العملي. وإما لخوفه منه، وضعفه

أمام مغرياته وعوائقه، وربما بالغ في هذا الخوف لجهله بحقيقة العصر، أو ضعف معرفته به، أو فهمه على غير وجهه، فلا يجد أمامه إلا العزلة عنه، بدل المواجهة التي لا يملك أسلحتها.

كما أن من الناس من يندمج في العصر إلى حد الذوبان فيه، فهو لا يقف من العصر موقف الفاحص المنتقي، الذي يأخذ ويدع، بل يأخذه كله، وينزل في بحره إلى الأعماق، إلى حد قد يغرق فيه، فلا يجد شاطئًا، ولا قاربًا للنجاة.

والخير في الوسط الذي يعرف العصر، ويحيا فيه، آخذًا أحسن ما فيه، ومنتفعًا بكل جوانبه الإيجابية الخيرة، معرضًا عن الجوانب الأخرى التي تضر ولا تنفع.

ليس العصر هو الغرب:

ولا بد هنا من إيضاح حقيقة لها وزنها وقيمتها، وهي: أن العصر ـ ليس هو الغرب.

فمن الناس من يعتبر أن عصرنا هو الغرب بكل ما فيه، من خير وشر، ورشد وغي، وهدى وضلال، واستقامة وانحراف. وأننا إذا شئنا أن نعيش عصرنا حقًا، يلزمنا أن نحيا حياة الغربيين بخيرها وشرها، وحلوها ومرها، ما يحب منها وما يكره، وما يحمد منها وما يعاب.

ولكن البحث المتعمق المنصف يرينا أن الغرب – وإن كان هو المهيمن في عصرنا على الحياة، وكانت ثقافته هي الثقافة السائدة والغالبة على العالم – ليس هو كل العالم، ولا كل العصر.

فهناك العالم الإسلامي – على امتداده وسعته – له ثقافته الخاصة، ومعارفه وقيمه المتميزة، ورغم سطوة الغرب الساحقة في عالم الثقافة، مثل سيطرته في عالم

السياسة، ورغم تأثر العالم الإسلامي بالغرب تأثرًا هائلًا في كل أنماط الحياة – يظل العالم الإسلامي متميزًا عن غيره من العوالم الأخرى، كتابية كانت أم وثنية.

وهناك عالم الشرق الأقصى بدياناته وفلسفاته، وطقوسه واتجاهاته، وما فيها من حقائق وأساطير، تكون جزرًا ثقافية أخرى لم تستطع الديانات السماوية الكبرى أن تؤثر فيها التأثير الثقافي المطلوب.

ومن هنا نقول: إن العصر أوسع من الغرب، برغم تأثيره البالغ عليه.

كما نقول أيضًا: إن الغرب ليس كله شرًّا ولا ضلالًا، فكم فيه من علم نافع، وكم فيه من عمل صالح، وكم فيه من خلق كريم، وكم فيه من إنجازات هائلة، وإمكانات ضخمة، يمكن توظيفها لصالح الإنسان، كل إنسان.

لقد أقرَّ الرسول الكريم ﷺ بعض الأحكام والتقاليد التي كان معمولًا بها في الجاهلية، حيث لم يجد فيها ما يخالف ما جاء به الإسلام.

وأقرَّ أشياء أخرى مع بعض التعديل، لتتفق مع هداية الإسلام عقيدة وشريعة وأخلاقًا.

ونقل أشياء من الأمم الأخرى، ولم ير في ذلك بأسًا، مثل أسلوب حفر الخنادق، ونصب المنجنيق في الحرب، ولم تكن من مكايد العرب في حروبهم.

ونوه الرسول عليه الصلاة والسلام بحلف اشترك فيه في صغره، وهو في الجاهلية، لرد المظالم، ونصرة المظلوم، وقال عنه: «**لو دعيت لمثله في الإسلام**

لأجبت»[54].

وقال عليه الصلاة والسلام: «**أصدق كلمة قالها شاعر، كلمة لبيد:**

ألا كل شيء ما خلا اللَّه باطل»![55]

وإنما قالها لبيد في الجاهلية قبل أن يسلم.

وأشاد ﷺ بخطبة سمعها قبل البعثة من قسّ بن ساعدة الإيادي في سوق عكاظ.

لا حرج علينا إذن أن نقتبس من الغرب ما ينفعنا، وما يليق بنا، ويتلاءم مع قيمنا وثقافتنا، وما يؤكد المبادئ التي دعا إليها ديننا.

وقد توجب علينا عملية الملاءمة هذه أن نعدل ونحور - بالحذف والإضافة - فيما نقتبسه حتى يغدو صالحًا لنا، متوافقًا مع أصول شريعتنا، ونظام حياتنا، وظروف بيئتنا. وقد يصبح بهذا التعديل والتحوير جزءًا من وجودنا المعنوي، وكياننا الثقافي، ويفقد جنسيته الأولى.

لا جناح علينا أن نأخذ من الديموقراطية وضماناتها وعناصرها ما يؤكد مبدأ الشورى، ومبدأ النصيحة والمحاسبة للحاكم، وحق عزله إن جار عما بويع عليه[56].

---

(54) رواه ابن إسحاق في «السيرة» كما في ابن هشام، بسند صحيح، إلا أنه مرسل، ولكن له شواهد تقويه. انظر: «تخريج فقه السيرة» للألباني، حديث رقم (22).

(55) متفق عليه عن أبي هريرة، كما في «صحيح الجامع الصغير» (1013).

(56) انظر: «الإسلام والديموقراطية»، «وتعدد الأحزاب في الدولة الإسلامية» من كتابي «فتاوى معاصرة» (2/ 636 - 665)، طبع دار الوفاء بمصر، وانظر: فصل «هم الاستبداد السياسي»

وأن نأخذ من نظام القضاء والمحاكمات الغربي، وأنواع المحاكم ودرجاتها، ما يؤكد مبدأ العدل الذي فرضه الإسلام، وأقام عليه الحكم.

وأن نأخذ مما ابتكره الغرب من أدوات للثقافة – كالسينما والمسرح والتلفاز والإذاعة – على أن نفرغ فيها المضمون الذي يتناسق معنا، ويدعم هويتنا، ونضع لها من الشروط والضوابط ما يجعلها أدوات بناء لا معاول هدم.

وكل ما لدى الغرب من وسائل وآليات لا بأس بأخذه منه، إذا استخدمناه فيما يخدم أهدافنا ومقاصدنا. إذ لا حكم للوسائل إلا باعتبار مقاصدها، وقد يرتقي أخذها واستيرادها إلى درجة الوجوب والفريضة لا مجرد الجواز والمشروعية، إذا كانت وسيلة لازمة ومتعينة لأمر واجب، وفقًا للقاعدة الشهيرة: «ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب».

وليس هذا خاصًا بالوسائل والأدوات المادية، بل يشمل المعارف والأفكار النظرية أيضًا.

وقد نبهت في بعض ما كتبت من قبل[57] أن رفضنا لبعض الفلسفات والنظريات الكلية التي ظهرت في الغرب، وكان لها أتباع وأنصار، كما كان لها خصوم وأعداء، مثل نظرية «دارون» في النشوء والارتقاء، أو نظرية «دوركايم» في نشأة الدين وتفسير الظواهر الاجتماعية، أو فلسفة «فرويد» في التحليل النفسي-

---

من كتابي «الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي». نشر- دار الرسالة، بيروت، ودار الصحوة بالقاهرة.

(57) انظر كتابي «بينات الحل الإسلامي» (ص82 – 86) تحت عنوان «مشروعية الاقتباس مما عند غيرنا وحدوده».

وتفسير السلوك الإنساني، أو فلسفة «ماركس» في التفسير المادي للتاريخ – رفضنا لهذه النظريات في فلسفتها الكلية، واتجاهها العام، لا يعني بالضرورة أن كل ما قاله هؤلاء باطل، فقد نجد عند كل واحد من هؤلاء في مجاله. من النظريات العميقة، والتحليلات الدقيقة، والآراء الرشيدة، ما ينبغي لنا أن ننتفع به، ونفيد منه لفكرنا وثقافتنا، تطبيقًا لما قاله سلفنا: «خذ الحكمة من أي وعاء خرجت».

وقد حكى القرآن على لسان بعض المشركين كلمات حكيمة تتلوها الأجيال في كتاب اللَّه، وتستضيء بها، وإن كان قارئها غير مؤمن، كما في قوله على لسان ملكة سبأ: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾. [النمل: 34].

فبينت ما يفعله الفتح الملوكي «الاستعماري» بالبلاد والعباد. وقد قالت ذلك قبل أن تسلم مع سليمان للَّه رب العالمين.

ومثل ذلك قول امرأة العزيز: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف: 53].

وقد روى أبو داود عن الصحابي الفقيه معاذ بن جبل: «إن الشيطان قد يقول كلمة الضلالة على لسان الحكيم، وقد يقول المنافق كلمة الحق. ولما قال له بعض أصحابه: وما يدريني – رحمك اللَّه – أن الحكيم قد يقول كلمة الضلالة، وأن المنافق قد يقول كلمة الحق؟ قال: بلى، اجتنب من كلام الحكيم المشتهرات – وفي بعض الروايات: المشتبهات – التي يقال لها: ما هذه؟! ولا يثنيك ذلك عنه، فإنه لعله أن يراجع، وتلق الحق إذا سمعته – أي ولو من منافق – فإن على الحق

نورًا»[58].

استيراد الثقافة الغربية بكل عناصرها:

ومن الدعوات المشبوهة هنا ما ينفق له بعض الناس من وجوب فتح النوافذ للثقافة الغربية بكل ما فيها من صواب وخطأ، ورشد وغي بحجتين يحتجون بهما:

الأولى: أن هذه الثقافة ثقافة عالمية، وليست ثقافة غربية. فإذا لم نفتح لها الأبواب والنوافذ على مصاريعها، تخلفنا عن ركب العالم المعاصر، وبتنا في عزلة قاتلة عن مسيرته الثقافية المتطورة.

والثانية: أن الثقافة أو الحضارة لا تتجزأ، فهي لا تعطيك بعضها، حتى تأخذها كلها، فأجزاؤها مرتبطة ارتباطًا عضويًا بعضها مع بعض، لا يجوز أن نأخذ الجانب المادي أو العلمي، دون الجانب الأدبي، ولا يسوغ أن نأخذ بعض الجانب الثقافي دون بعض.

دعوى عالمية الثقافة:

أما الشبهة الأولى فهي مغالطة مكشوفة، فمن المقرر المعلوم لدى الدارسين أن الثقافة غير العلم المحض، القائم على الملاحظة والتجربة، فهذا العلم التجريبي عالمي حقًا، فقوانين الفيزياء والكيمياء، والفلك والتشريح والطب وغيرها قوانين عامة، لا تتأثر بدين ولا وطن ولا قوم، إلا في عرضها وتدريسها، وربطها بالفلسفة العليا للكون كله، وللوجود كله، ووضع الضوابط لتوظيفها فيما يخدم الأهداف العليا للإنسان، ولا يتعارض مع القيم الدينية والأخلاقية.

---

(58) رواه أبو داود في كتاب «السنة»، باب: لزوم السنة. عن معاذ موقوفًا برقم (4611).

أما الثقافة فخصوصيتها ثابتة ومؤكدة، لأنها ليست مجرد معارف ذهنية مجـردة، بل هي معارف وإدراكات، ممزوجة بقيم واعتقادات، مجسدة في أعمال وسلوكيات، تعبر عنها شعائر وآداب وفنون، تقرأ وتسمع، وتحس وترى.

وهي تتأثر في ذلك كله بالدين واللغة، والبيئة، والمواريث الثقافية والحضـارية، والتفاعل مع الآخرين إيجابًا أو سلبًا.

ولهذا تختلف ثقافة الشعوب بعضها عن بعض، فثقافة أهل الشرـق غـير ثقافـة أهل الغرب، وثقافة أهل الإلحاد غير ثقافة أهل الدين، وثقافة أهـل الكتـاب غـير ثقافة الوثنيين، وثقافة الحضر غير ثقافة البدو، وثقافة العـرب غـير ثقافـة العجـم، وثقافة المسلمين غير ثقافة غيرهم من أهل الملل الوضعية أو السماوية.

ولو نظرنا إلى الغرب، لوجدنا ثقافة البلاد الليبرالية تختلـف كثـيرًا عـن الـبلاد الشيوعية، ثم وجدنا الليبراليـين يتفـاوتون فـيما بيـنهم، فالثقافـة اللاتينيـة غـير السكسونية، غير الجرمانية، وهذه كلها غير الثقافة الأمريكية.

صحيح أن هناك قدرًا مشتركًا بينها، لاتفاقها في الدين المسـيحي، والاسـتمداد من الحضارتين الإغريقية والرومانية، وتشابه البيئة، ولكن يبقى لكـل منهـا تميـزه ومشخصاته.

أما المسلمون – والعـرب خاصـة – فلهـم ثقـافتهم الخاصـة التـي تعـبر عـن كينونتهم الحضارية المتميزة، والتي اتسمت بخصائص قلما تتوافر لغيرها، تحـدثنا عنها في موضعها.

هل الحضارة كل لا يتجزأ؟

وأما الشبهة الأخرى، وهي أن الثقافة أو الحضارة مرتبطـة ارتباطًـا عضـويًا لا

يقبل التجزئة، بحيث يستحيل أخذ بعضها دون بعض. فهو قول مرفوض، ودعوى مردودة، يرفضها المنطق، ويردها التاريخ والواقع.

لقد دعا الدكتور طه حسين إلى ذلك في الثلاثينات من هذا القرن العشرين - في كتبه مستقبل الثقافة في مصر - كما دعا إليه آخرون قبله وبعده ورد عليهم آخرون قديمًا وحديثًا.

وقد عرضت لذلك في كتابي «الحلول المستوردة»[59]، وبينت أن الانتقاء من الحضارات والثقافات ممكن وواقع. وقد حدث قديمًا وحدث في عصرنا.

فقد أخذ المسلمون في عصورهم الذهبية عن الفرس والهنود واليونان، جوانب مختلفة من حضاراتهم وثقافاتهم، وانتفعوا بها بقدر أو بآخر، ولم يكن حتمًا عليهم أن يأخذوا كل ما في هذه الحضارات أو الثقافات.

وأخذ الأوربيون بعد ذلك من المسلمين المنهج العلمي الاستقرائي، كما شهد بذلك المنصفون من مؤرخي العلم الغربيين أنفسهم[60]، وانتفعوا بهذا المنهج أيما انتفاع، ولم يكن لازمًا لذلك أن يأخذوا من المسلمين عقائدهم وتصوراتهم، وعباداتهم وآدابهم، وغير ذلك مما يكون ثقافتهم المتكاملة.

وأخذ اليابانيون اليوم من الغربيين علمهم الطبيعي والرياضي، وما أثمره من تطبيقات تكنولوجية، فأفادوا وتفوقوا فيه على أصحابه أنفسهم، ولم يأخذوا منهم

---

(59) فصل «كيف عُزل الإسلام عن قيادة المجتمع»؟

(60) من أمثال «بريفولت» و«غوستاف لوبون» و«جورج سارتون» وغيرهم، انظر: «مناهج البحث عند مفكري الإسلام واكتشاف المنهج العلمي في العالم الإسلامي»، للدكتور سامي على النشار، (ص382 - 385) ط. دار المعارف الثانية.

ما يتعلق بالعقائد والشعائر والتقاليد، وما ضرهم ذلك شيئًا، بل حفظ عليهم ذاتيتهم، وشخصيتهم التاريخية المستقلة.

والمؤرخ المفكر الغربي الشهير «توينبي» ينقد بشدة غير الغربيين الذين يقلبون الحضارة الغربية بكل عناصرها، ويرى ذلك من سوء حظ البشرية. وذلك حين يتحدث عن البلاد التي تحررت من الاستعمار الغربي، فيقول في «محاضراته»:

«ولكن هذه البلاد التي استقلت سياسيًا، ما زالت غير متحررة تمامًا من الوجهة الثقافية، فهي لا تزال متأثرة بالأفكار والمثل العليا الغربية، دون تمييز ودون أي انتقاد لها».

وفي موضع آخر يقول: «على أن كل هذه البلاد التي نجحت في أن تحرر نفسها من سيطرة الغرب السياسة، قد استغل حريتها على نحو غير متوقع على الإطلاق. فقد ناضلت هذه البلاد بعنف شديد ضد السيطرة السياسية للغرب. ويمكن القول بأن كفاحها هذا قد كلل بالنجاح في كل الحالات حتى الآن. ولقد كان من المتوقع بعد أن تمكنت من أن تتحرر سياسيًا من الغرب، أن تستخدم هذه الحرية الجديدة التي اكتسبتها في النضال ضد المدنية الغربية بوجه عام؛ أي أنه كان من المتوقع أن تستخدم هذه البلاد حريتها المكتسبة حديثًا، لكي ترجع إلى أسلوبها التقليدي في الحياة، وهو الأسلوب الذي كان سائدًا في حياتها قبل أن يسيطر عليها الغرب. ولكن الذي حدث في جميع الحالات تقريبًا - كما نعلم - هو أن البلاد التي تحررت حديثًا قد استخدمت حريتها للغرض العكسي- تمامًا؛ أي أنها قد استخدمتها لتقتبس - بمحض اختيارها - عناصر من المدينة الغربية، أعني من أسلوب الحياة الحديثة، وقد فعلت ذلك بحماسة، وبلغت حماستها هذه حدًا لم يكن الحكام الغربيون السابقون يجرؤون على أن يفرضوا به المدنية الغربية عليهم، ذلك

لأن نظام الحكم الأجنبي، يتعين عليه دائمًا أن يكون أكثر حذرًا من نظام الحكم القومي، وهناك أمور لا يجرؤ النظام الأجنبي على فعلها مطلقًا، ومع ذلك يجرؤ عليها النظام القومي.

ولكنني أعتقد أنه سيكون من سوء حظ الجنس البشري كله – وضمنه الغرب ذاته – أن يتجه الجزء غير الغربي من العالم إلى قبول المدنية الغربية بكل عناصرها دون تمييز، ودون تفرقة بين ما هو نافع وما هو ضار فيها، وأقول: إن هذا يكون من سوء الحظ، لأن المدنية الغربية – شأنها شأن أي مدنية أخرى – فيها أوجه نافعة وأوجه ضارة.

ذلك لأن المستوى المادي للمعيشة، ليس غاية في ذاته، وإنما هو وسيلة لغاية أخرى هي رفع المستوى الروحي.

وعلى ذلك فمن وراء رأس المال المادي، يوجد رأس المال الإنساني، وهو أهم رأس مال يملكه البشر»[61].

دفاع العلمانيين عن استيراد المذاهب والأفكار:

لقد دافعت بعض الأقلام العلمانية في ديارنا العربية الإسلامية عن اتجاه «الاستيراد»: استيراد المذاهب والأفكار من خارج أرضنا، واستغرب بعضهم النقد الذي يوجهه «دعاة الأصالة» إلى المذاهب المستوردة، والأفكار المستوردة، والحلول المستوردة، وحجة هؤلاء: أن الحياة قائمة على التبادل، هذا يصدر، وهذا يورد، وهذا يبيع، وهذا يشتري، وهذا يعطي، وهذا يأخذ. وكما يحدث هذا في عالم

(61) انظر: محاضرات «أرنولد توينبي» (ص35 – 47)، وانظر كتابنا: «الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا» (ص 137 – 138)، طبع الرسالة، بيروت.

«الأشياء»، فلماذا لا يحدث مثله في عالم «الأفكار»؟ وفق تقسيم مالك بن نبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وغفل هؤلاء عن عدة حقائق:

الأولى: أن دعاة الأصالة لا ينكرون استيراد الأفكار الجزئية، أو الحلول الجزئية لمشكلاتنا من الغرب أو الشرق، إذا كانت ملائمة لنا، محققة لأهدافنا، نختارها نحن ولا تُختار لنا أو تُفرض علينا. بل قد يوجبون الاستيراد إذا رأوا فيه مصلحة متعينة لأمتنا، وبخاصة ما يتعلق بالوسائل والأساليب.

إنما ينكرون استيراد مذهب كامل نتخذه مرجعًا لنا، أو فكر كلي، أو حل كلي، نؤسس عليه حياتنا كالفكر - أو الحل - الليبرالي الرأسمالي، أو الفكر - أو الحل - الاشتراكي الثوري الماركسي، كما نادى منادون بهذا أو ذاك أيام نفاق سوقها في بلادها.

الثانية: أن دعاة الأصالة ينكرون أن نظل نحن نستورد أبدًا ولا نصدر، ونشتري ولا نبيع، ونأخذ ولا نعطي، ونستهلك ولا ننتج، فهذا ليس من «التبادل» في شيء. إنما نحن - حينئذ - سوق لسلع الآخرين، وأفواه مفتوحة لالتهام منتجاتهم. وهذه هي «التبعية» الذليلة المرفوضة، التي لا يجوز أن ترضى بها أمة كريمة على نفسها، لا في عالم الأشياء، ولا في عالم الأفكار.

وإذا سقطت أمة في مرحلة ما من تاريخها في هوة الاستيراد من جانب واحد، فعليها أن تعتبر ذلك نقطة ضعف يجب أن تتجاوزها وتتحرر منها، ولا تدافع عنها أو تباهي بها.

الثالثة: أن علم الاقتصاد الذي يستند إليه هؤلاء العلمانيون، والذي يرى أن

الحياة قائمة على التبادل، وأن الاستيراد كثيرًا ما يكون ضروريًا للأمم والجماعات، هذا العلم نفسه يقيد هذا بقيود تجعله وسيلة نفع لا أداة ضرر، وآلة بناء لا معول هدم.

فلا يجوز أن نستورد من غيرنا ما يضرنا ماديًا أو معنويًا، كالذي يسمونه «المشروبات الروحية» وأدوات الاستهلاك الترفي، ولوازم اللهو الحرام.

ولا يجوز أن نستورد إذا كان الاستيراد يعود الشعب الاتكال على ما عند غيره، لا الاعتماد على نفسه، ليأكل مما يزرع، ويلبس مما يصنع، ويستهلك مما ينتج، ويدافع عن نفسه بأسلحة من صنع يديه.

وفوق ذلك كله لا يجوز أن نستورد سلعة من غيرنا إذا كان لدينا سلعة مثلها، ناهيك بسلعة أفضل منها.

وهذا ما جعل دعاة الأصالة العربية الإسلامية ينكرون استيراد أيديولوجيات ومذاهب، نبتت في أرض غير أرضنا، لتخاطب قومًا غير قومنا، وتحمل لتفسير الوجود والمعرفة والقيم فلسفة غير فلسفتنا، وتتعامل مع اللَّه والإنسان، والكون والحياة بثقافة غير ثقافتنا.

النموذج الغربي للتنمية:

وإذا كان الغرب ليس هو العصر، فمن حقنا أن نتوقف أمام بعض دعاة المعاصرة الذين يريدوننا - لكي نكون معاصرين حقًا - أن نأخذ «النموذج الغربي» في التنمية، بكل ما أفرز من سلبيات في محيط الكون والحياة والإنسان. ويرون أنه لا سبيل لأن تنمو مجتمعاتنا وتنهض من كبوتها، وتخرج من إسار التخلف، إلا إذا قلدت هذا النموذج حذوه القذة بالقذة.

هذا مع ان الغربيين أنفسهم اليوم يوجهون سهام نقدهم إلى هذا النموذج الذي غلت عليه نزعات المادية والنفعية، والآنية والمحلية والعنصرية جميعًا.

لقد عدا النموذج الغربي على التوازن الكوني، وأمسى الناس يشكون اليوم من الخلل الذي أصاب طبقة «الأوزون»، والذي ترتب عليه خلل كبير في حياة الناس، قد يتفاقم فيؤدي إلى نتائج لا يعلم عواقبها إلا اللَّه.

وعدا النموذج الغربي على «التوازن الفطري» الذي أودعه اللَّه الحياة بعناصرها وأنواعها المختلفة، فكان من أثره ما جعل الناس يشكون من «تلوث البيئة» بمختلف مظاهره.

وأشد من خطر تلوث البيئة: تلوث الإنسان نفسه. حين تفسد فطرته، وتختل موازينه، ويعوج تفكيره وسلوكه، فيرتكب من الحماقات، ويقترف من المنكرات والشذوذات، ما يعاقب عليه في الدنيا، قبل الآخرة، تعاقبه فطرة اللَّه في الأرض قبل أن تعاقبه محكمته في السماء.

ومن هنا كان «الإيدز»، وكانت الأمراض العصبية والنفسية، وكان القلق والاكتئاب، المنتهى بالانتحار، والتخلص من الحياة، أو العيش في الحياة باعتبارها ملهاة أو مأساة! على نحو ما قال شاعرنا العربي قديمًا:

ليس من مات فاستراح بميتٍ إنما الميت ميت الأحياء
إنما الميت من يعيش كئيبًا كاسفًا باله قليل الرجاء

لقد أدى هذا النموذج بزعاته تلك إلى أن جعل الإنسان عبدًا للآلة، التي هو صانعها، وأن أصبح في النهاية ترسًا في هذه الماكينة الكبيرة الجبارة، إن لم يسر معها ويدر بدورانها، طحنته عجلاتها، ولم يبال به أحد.

لقد قدمت له التنمية الصناعية – الخالية من القيم الإيمانية والأخلاقية – الوسائل، ولم تقدم له الغايات، قدمت له الرفاهية، ولم تقدم له السكينة، منحته المادة، وسلبته الروح، أعطته العلم، وحرمته الإيمان.

لا غرو أن وجدنا من فلاسفتهم ومفكريهم، وعلمائهم وأدبائهم، من سلطوا أضواءهم الكاشفة والناقدة على عورات هذا النموذج المسرف في المادية، والذي جعل التنمية غاية أو إلهًا معبودًا.

ومن أشهر نقادهم هنا: اثنان من حملة جائزة نوبل في العلوم، وهما: «ألكسيس كاريل»، و «رينيه دوبو»[62].

هذا ما صنعه الغرب بنفسه حتى نما، ناهيك بما صنعه بغيره من الشعوب والأوطان.

لقد سرق ثرواتها سرًا وعلانية، ليكون منها رصيدًا ضخمًا لثروته الكبرى. لقد أفقرها ليغتني هو. إنها اللصوصية بعينها.

لقد قتل الآخرين ليحيا، صنع من جماجمهم حجارة لبناء رفاهيته، وزخرف أبنيته بدمائهم.

واليوم، ونحن نسعى إلى التنمية بكل طاقاتنا، هل يلزمنا أن نقلد هذا النموذج، ونتخذه إمامًا؟

---

(62) انظر «رينيه دوبو» في كتابه «إنسانية الإنسان» ترجمة د. نبيل صبحي الطويل، و «ألكسيس كاريل» في كتابه «الإنسان ذلك المجهول» ترجمة أسعد شفيق، و «كولن ولسون» في كتابه «سقوط الحضارة» وغيرهم.

إن واجبنا أن نضعه على مشرحة التحليل، لنعرف مكوناته، ونحلله إلى عناصره الأولية، فنأخذ منه ما ثبت نفعه، ونتجنب ما ثبت ضرره وإثمه، أو ما كان إثمه أكبر من نفعه. وأن نُحور فيه ونعدل حتى يلائمنا.

إن التنمية التي نتبناها هي التنمية بمفهومها الشامل، الذي يعتبر الإنسان هدف التنمية ووسيلتها في آن واحد، والذي يهدف إلى تنمية الإنسان كله: جسمه، وعقله، وعاطفته، وروحه وضميره. الإنسان فردًا، والإنسان مجتمعًا، الإنسان طفلًا، والإنسان شابًا، والإنسان شيخًا. الإنسان رجلًا، والإنسان امرأة. الإنسان الأبيض، والإنسان الأسود، والإنسان الملون.

2 - **العلم والتكنولوجيا:**

إن أهم مقتضيات المعاصرة، وبعبارة أخرى: أهم ما نأخذه من «العصر» هو: العلم وتطبيقاته «التكنولوجية»، العلم بمعناه الحديث، القائم على الملاحظة والتجريب. العلم الطبيعي والرياضي، إلى آخر مدى وصلا إليه. العلم الذي أوصل الإنسان إلى غزو الفضاء، وصنع الحاسوب «الكومبيوتر» والهندسة الوراثية، التي انتهت إلى مرحلة يعبرون عنها بـ «الثورة البيولوجية».

إننا إذا قلنا: إن أصالتنا الإسلامية والعربية لا تمنعنا من أخذ هذا العلم والاقتباس منه والانتفاع به، نكون قد ظلمنا أصالتنا.

فالواقع أنها توجب علينا ذلك إيجابًا، من أكثر من جهة:

1 - من جهة أن من فروض الكفاية على الأمة - التي لا خلاف عليها - أن تتقن كل علم تحتاج إليه في دينها أو دنياها، وأن يكون لديها من المتخصصين والخبراء فيه ما يقوم بكفايتها، ويغنيها عن غيرها.

وفرض الكفاية هو ما يجب على الأمة في مجموعها وجوبًا تضامنيًا، بحيث إذا قام به عدد كافٍ سقط الإثم عن سائر الأمة، وإلا أثمت كلها.

2 – ومن جهة أن الأمة مطالبة بأن تكون في مكان الأستاذية للم، التي يعبر عنها القرآن بـ «الشهادة على الناس»، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: 143].

وهذه المكانة التي بوأها القرآن للأمة توجب عليها أن تتفوق في كل ما يعزز مكانتها، ويعينها على أداء رسالتها الحضارية، وفي مقدمة ذلك العلم الذي جعله اللَّه المرشح الأول لاستحقاق الإنسان منصب الخلافة في الأرض كما تدل على ذلك آيات: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ 30 وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ 31 قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ 32 قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: 30 – 33].

فلا يجوز للأمة المسلمة أن تظل عالة على غيرها، وأن ترضى بالبقاء في ذيل القافلة البشرية وموضعها في الطليعة.

3 – ومن جهة أن الأمة يجب أن تكون سيدة في أرضها، لا سلطان لأحد عليها، فهي بالإسلام تعلو ولا تُعلى، وتحكم ولا تُحكم. ويجب لذلك أن تُعد لأعدائها

القائمين والمحتملين ما استطاعت من قوة، دفاعًا عن حرماتها، وذودًا عن دعوتها، وتمكينًا لحضارتها، وإرهابًا لعدو اللَّه وعدوها.

وإذا كان العلم والتكنولوجيا التي هي ثمرته وسيلة لازمة لذلك، وكان من الواجب الحتمي شرعًا اكتساب هذا العلم وكل ما يؤهل له ويعين عليه، تطبيقًا للقاعدة الشرعية المتفق عليها، وهي: «ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب».

4 – ومن جهة رابعة: أن العلم الحديث ييسر على الإنسان كثيرًا من أمور حياته، ويساعده على أداء واجباته، في وقت أسرع، وبجهد أقل، وبصورة أفضل، ويسهل له أشياء لم يكن يحلم بها من قبل مجرد حلم.

ولا يجوز أن يحرم المجتمع المسلم، ولا الفرد المسلم من ثمرات هذا كله، بل هو أولى الناس بالاستفادة من هذا العلم، الذي يعتبره نعمة من اللَّه الذي: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: 5]. والذي يجب أن يشكر اللَّه تعالى عليها، وشكر النعمة باستخدامها فيما خلقت له، مما يحبه اللَّه تعالى ويرضاه، لا مما يكرهه ويسخطه.

ثم إن اللَّه تعالى يريد بالناس اليسر، ولا يريد بهم العسر، والشريعة تأمر بتحصيل المصالح الخالصة أو الراجحة، فإذا ثبت أن وراء هذا العلم تيسيرًا ومصلحة فهو مطلوب شرعًا.

وقد استخدم المسلمون هذا العلم في طباعة المصاحف والكتب الدينية، ونشر العلم وتعليم الدين، وتسهيل أداء عباداته، مثل فريضة الحج، وغيرها. واليوم يجتهدون في استخدام «الكومبيوتر» في خدمة السنة النبوية والعلوم الشرعية واللغوية، فهو عون على الدين والدنيا.

5 – ومن جهة خامسة: أن هذا العلم الذي نأخذه اليوم من الغرب، قد أخذه الغرب بالأمس منا، من حضارتنا. وهذا ما شهد به الغربيون أنفسهم، فهو إذن بضاعتنا ترد إلينا، ولسنا بالغرباء عنه، ولا الدخلاء عليه.

صحيح أن العلم المعاصر لم يعد هو العلم الذي اقتبسه الغرب منا قديمًا، فقد خطا خطوات واسعة، وقفز قفزات هائلة، من عصر الصناعة الأول على عصر الصناعة الثاني، إلى ما نراه اليوم من تكنولوجيا متطورة، ومن نتائج بعيدة المدى، ومن طموحات تكاد تغير وجه الحياة. ولكن أصول هذا المنهج العقلية والعلمي أصول إسلامية، وقد قيل: «الفضل للمبتدى، وإن أحسن المقتدى».

ومهما يكن الأمر في أصل هذا العلم ومصدره، فهو الآن في صورته الأخيرة علم غربي، شئنا أم أبينا، وهو كذلك أحد مستلزمات العصر، ولا معاصرة لنا إذا لم نعبه عبًا، لا يكفينا منه مجرد الارتشاف، لا بد من الوصول إلى درجة «الإحسان» في هذا العلم، فإن الله كتب الإحسان على كل شيء.

شراء التكنولوجيا:

ولا ينفعنا هنا ما زعمه بعضهم يومًا: أننا يمكننا بأمولنا – التي هيأها لنا النفط وغيره – أن نشتري التكنولوجيا من أي مكان في العالم، ونستخدمها كما نريد، ونوظفها في إنهاض أوطاننا، وتطوير أوضاعنا، وتحقيق طموحاتنا التنموية.

فالواقع أن التكنولوجيا التي تشترى لا تطور المجتمع، ولا تنقله إلى العصر؛ بل تساعده على الاستهلاك لا الإنتاج، والتقليد لا الإبداع، وتغيير المظهر لا الجوهر، والمبنى لا المعنى.

والذين يبيعوننا التكنولوجيا ليسوا بلهاء، بحيث يبيعوننا ما يجعلنا نستغنى

عنهم؛ إنما يعطوننا البعض لا الكل، والفرع لا الأصل، حتى نظل مربـوطين بهـم، مشدودين إليهم، مفتقرين إلى عونهم.

ولا يزال الناس يذكرون في الخليج تلك المدينة الخليجية الكبرى التي تعطلـت فيها إحدى محطات الكهرباء الرئيسة، فعاش نحو ثلث سكانها محرومين مـن كـل آثار الكهرباء في الحياة الحديثة: لا ثلاجة ولا مكيف ولا مروحـة، ولا مصـعد ولا تلفاز، ولا ... ولا ... حتى أرسل المصنع أو الشركة التـي اشـتريت منهـا المحطـة الخواجة المهندس الذي أصلحها!

إن التكنولوجيا المطلوبة هي التي تُستنبت في أرضنا، وتنمو بنمونـا، وتتفاعـل مع واقعنا، وتمدها عقول أبنائنا، وتحملها سواعدهم. ونحن لها أهـل إذا اسـتبانت الوجهة، واتضح السبيل. والدين أعظم ما يعيننا على ذلك إذا أحسنا فقهه، وعملنا بتوجيهه.

لا تناقض بين النقل والعقل:

وما أوهمه بعض الكتاب من أن البيئة الدينيـة لا تهيـئ لمنـاخ علمـي مزدهـر، بافتراض وجود صراع بين النقل والعقل، أو بين النص الإلهي والاجتهاد الإنساني، غير صحيح، بل ترده النصـوص، ويـرده التـاريخ، ويـرده الواقـع، فالعقـل هـو المخاطب بنص الشارع، والمكلف بفهمه والعمل به، والاجتهاد في دلالتـه، ومـلء الفراغ فيما لا نص فيه. وقد ترك النقل – أو الوحي – للعقل شؤون الكون والحياة كلها يصول فيها ويجول، ولم يحجر عليه في ذلك بل أمره وحرضه ودعاه.

والمحققون من علماء الأمة اعتبروا الوحي والعقـل هـاديين للخلـق إلى الحـق. يقول الإمام الراغب الأصفهاني في كتابه القيم «الذريعة إلى مكارم الشريعة»:

«اللَّه ﷻ إلى خلقه رسولان، أحدهما: من الباطن وهو العقل، والثاني: من الظاهر وهو الرسول، ولا سبيل لأحد إلى الانتفاع بالرسول الظاهر ما لم يتقدمه الانتفاع بالباطن، فالباطن يعرف صحة دعوى الظاهر، ولولاه لما كانت تلزم الحجة بقوله، ولهذا أحال اللَّه من يشكك في وحدانيته وصحة نبوة أنبيائه على العقل، فأمره بأن يفزع إليه في معرفة صحتها. فالعقل قائد والدين مدد، ولو لم يكن العقل لم يكن الدين باقيًا، ولو لم يكن الدين لأصبح العقل حائرًا، واجتماعهما كما قال اللَّه تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور: 35][63].

ويؤكد ذلك معاصر الراغب الإمام أبو حامد الغزالي في عدد من كتبه. ففي مقدمة «المستصفى» يعتبر العقل القاضي الذي لا يُعْزَل ولا يبدل، والشرع الشاهد المزكى المعدل، ويجعل العقل مركب الديانة وحامل الأمانة[64].

وفي «الإحياء» يقرر أن لا غنى بالشرع عن العقل، ولا بالعقل عن الشرع «فإن العلوم العقلية كالأغذية، والعلوم الشرعية كالأدوية، والشخص المريض يستضر بالغذاء متى فاته الدواء»، وينكر على من يظن أن العلوم العقلية مناقضة للعلوم الشرعية، وأن الجمع بينهما غير ممكن. وهو في رأيه ظن صادر عن عمى في عين البصيرة[65].

وفي «الاقتصاد في الاعتقاد» يصف عصابة الحق وأهل السنة أنهم الذين وفقوا

---

(63) انظر: «الذريعة إلى مكارم الشريعة» (ص 207) بتحقيق أبو اليزيد العجمي، طبع دار الصحوة بالقاهرة.

(64) «المستصفى» (1/ 3).

(65) «الإحياء» (3/ 17)، طبع دار المعرفة، بيروت. ويلاحظ أن الراغب في «الذريعة» يرى الشرعيات كالأغذية، والمعقولات كالأدوية، باعتبار آخر (ص 208).

بين مقتضيات الشرائع، وموجبات العقـول، وتحققـوا أن لا معانـدة بـين الشرـع المنقول والحق المعقول(66).

وفي كتاب «معارج القدس» الذي ينسب للغزالي نقرأ هذه الكلمات:

«اعلم أن العقل لن يهتدي إلا بالشرـع، والشرـع لم يتبـين إلا بالعقـل. فالعـل كالأس والشرع كالبناء، ولن يغني أس ما لم يكن بناء، ولن يثبت بنـاء مـا لم يكـن أس.

وأيضًا، فالعقل كالبصر، والشرع كالشعاع، ولن يغني البصر ما يكن شعاع من خارج، ولن يغني الشعاع ما لم يكن بصر، فالشرع عقل من خارج، والعقـل شرع من داخل، وهما متعاضدان، بل متحدان»(67).

ولا غرو أن وجدنا في تاريخ حضـارتنا كثـيرًا ممـن نبغـوا في المجـالين: العلـوم الشرعية، والعلوم العقلية. ومن هذه العلوم العقلية: العلوم الطبيعية، والرياضـية والطبية.

فجابر بن حيان يسمى جابرًا الصوفي.

الخوارزمي مبتكر علم الجبر، إنما وصل إليه، وهو يؤلف رسالة في فقه الوصـايا والفرائض.

وابن رشد الحفيد صاحب كتاب «الكليات» في الطـب الـذي تتلمـذت عليـه

---

(66) من مقدمة كتاب «الاقتصاد في الاعتقاد» للغزالي.

(67) «معارج القدس» (ص 57) طبع دار الآفاق الجديدة، بيروت. وانظر: تعليقنا عليه في كتابنـا «الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه» (ص 41).

أوروبا عدة قرون، هو نفسه صاحب كتاب «بداية المجتهد ونهاية المقتصد» في الفقه المقارن، وهو قاضٍ شرعي من فقهاء المالكية.

والفخر الرازي صاحب «التفسير الكبير» والكتب الشهيرة في علم أصول الفقه وعلم أصول الدين، كان من أشهر الأطباء في زمنه، ولم تكن شهرته في الطب تقل عن شهرته في علوم الدين.

وابن النفيس مكتشف الدورة الدموية الصغرى، وأول من أشار إلى الحويصلات الرئوية والشرايين التاجية، وهو أحد فقهاء الشافعية الذين ترجم لهم ابن السبكي في «طبقاته»، وترجم لهم الذهبي وغيره من مؤرخي الأعلام في الإسلام[68].

استخدام أسلوب الإحصاء:

وإذا كان عصرنا يعتبر استخدام أسلوب الإحصاء من أبرز دلائل الطريقة العلمية في معاجة الأمور، وهو فارق مميز بين العلميين والعشوائيين، أو الغوغائيين من الناس، فإن النبي ﷺ قد بادر إلى الانتفاع بالإحصاء منذ عهد مبكر من إقامة دولته بالمدينة.

فقد روى البخاري ومسلم عن حذيقة بن اليمان رضي الله عنه، قال: كنا مع رسول الله ﷺ، فقال: «**أحصوا لي كم يلفظ الإسلام**».

وفي رواية للبخاري أنه قال: «**أحصوا لي كم يلفظ الإسلام**» قال حذيفة: فكتبنا

(68) انظر في تراجم هؤلاء: «الأعلام» للزركلي.

ألفًا وخمسمائة رجل ... [69] الحديث.

فهو إحصاء كتابي يراد تدوينه وتثبيته، وذلك ليعرف عليه الصلاة والسلام مقدارة القوة البشرية الضارية، التي يستطيع بها أن يواجه أعداءه المتربصين به، ولهذا كان الإحصاء للرجال فقط، أي القادرين على القتال.

والإحصاء الذي تم في عهد مبكر من حياة الدولة المسلمة، وتم بأمر من الرسول نفسه في سهولة ويسر، يرينا إلى أي حد يرحب الإسلام باستخدام الوسائل العلمية.

وفي مقابل هذا نجد في «العهد القديم»: أن أحد أنبياء بني إسرائيل أراد أن يعمل لهم إحصاء فنزلت عقوبة سماوية بهم! كأنما «الإحصاء» يمثل تحديًا للقدر أو للإرادة الإلهية. وهذا ما استنبط منه الفيلسوف المعاصر الشهير «برتراند راسل» أن تعليم «التوراة»، والكتاب المقدس لا تتيح مناخًا مناسبًا لإنشاء عقلية علمية.

التخطيط:

وإذا كان الإحصاء من دلائل الطريقة العلمية فالتخطيط كذلك، بل هو أوضح دلالة عليها، والتخطيط إنما يعتمد على الإحصاء، ويراد بالتخطيط وضع خطة لمواجهة احتمالات المستقبل، وتحقيق الأهداف المنشودة.

ومن الناس من يتصورون أو يصورون الدين في موقف المعارض أو المناقض لفكرة التخطيط العلمي للمستقبل. وهذا من أثر الفكرة القديمة التي جعلت العلم مقابلًا للإيمان، فهما ضدان لا يجتمعان، أو خطان متوازيان لا يلتقيان.

---

(69) انظر «جامع الأصول» (10/ 100)، حديث رقم (7570) تحقيق عبد القادر الأرناؤوط.

والحقيقة أن فكرة الدين في جوهرها قائمة على أساس التخطيط للمستقبل ففيه يأخذ المرء المتدين من يومه لغده، وبعبارة أخرى من حياته لموته، ومن دنياه لآخرته، ولا بد له أن يخطط حياته، ويضع لنفسه - في ضوء الوحي - منهاجًا يوصله إلى الغاية، وهي رضوان اللَّه ومثوبته.

وفي القرآن الكريم قصة جعلها اللَّه عبرة لأولي الألباب، وهي قصة نبي اللَّه يوسف عليه السلام، وفيها يذكر القرآن لنا مشروع تخطيط للاقتصاد الزراعي لمدة خمسة عشر عامًا، لمواجهة أزمة غذائية عامة. عرف يوسف - بما ألهمه اللَّه، وعلمه من تأويل الأحاديث - أنها ستصيب المنطقة كلها، وقد اقترح يوسف عليه السلام مشروع الخطة. ووكل إليه تنفيذها، وكان فيها الخير والبركة على مصر وما حولها: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ 47 ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ 48 ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف: 47 - 49].

ويظن آخرون أن التخطيط للغد ينافي التوكل على اللَّه، أو الإيمان بقضائه، وقدره؛ ولهذا يستبعدون كل الاستبعاد أن يقبل الدين فكرة التخطيط فضلًا عن أن يوجه إليه، أو يحث عليه.

والحق أن الذي يتعمق في دراسة كتاب اللَّه، وسنة رسوله يتبين له أنهما يرفضان الارتجال والعشوائية، وترك الأمور تجري في أعنتها بغير ضابط ولا رابط ولا نظام. وبين الرسول ﷺ أن التوكل على اللَّه لا يعني اطراح الأسباب أو إغفال السنن، التي أقام اللَّه عليها نظام هذا الوجود، ولا يكاد مسلم يجهل قصة الأعرابي الذي جاء إلى

النبي ﷺ، وترك ناقته أمام المسجد قائلًا: يا رسول اللَّه، أأعقل ناقتي وأتوكل أم أطلقها وأتوكل؟ فقال له: «**اعقلها وتوكل**»[70].

وقال الإمام الطبري يرد على من زعم أن تعاطي الأسباب يؤثر في كمال التوكل: الحق أن من وثق باللَّه، وأيقن أن قضاءه عليه ماض، لم يقدح في توكله تعاطيه الأسباب؛ اتباعًا لسُنّته وسُنّة رسوله، فقد ظاهر ﷺ بين درعين، ولبس على رأسه المغفر، وأقعد الرماة على فم الشّعب، وخندق حول المدينة، وأذن في الهجرة إلى الحبشة، وإلى المدينة، وهاجر هو، وتعاطى أسباب الأكل والشرب، وادخر لأهله قوتهم، ولم ينتظر أن ينزل عليه من السماء، وهو كان أحق الخلق أن يحصل له ذلك[71].

ومن قرأ سيرته عليه الصلاة والسلام، وجد أنه كان يُعد لكل أمر عُدّته، ويهيئ له أسبابه وأهبته، آخذًا حذره، مقدِّرًا كافة الاحتمالات، واضعًا ما أمكنه من الاحتياطات مع أنه كان أقوى المتوكلين على اللَّه تعالى.

فهو حين أمر أصحابه – بعد أن اشتد إيذاء قريش لهم – بالهجرة إلى الحبشة، لم يكن هذا الأمر اعتباطًا، أو رمية من غير رام، بل كان نتيجة معرفة بالظروف

---

(70) رواه الترمذي من حديث أنس، وقال: غريب – أي ضعيف، وأنكره يحيى القطان، لكن أخرجه ابن حبان في «صحيحه» من حديث عمرو بن أمية الضمري، وإسناده – كما قال الزركشي: صحيح – ورواه عنه أيضًا ابن خزيم في «صحيحه» بلفظ: «**قيدها وتوكل**»، وإسناده – كما قال الزين العراقي: جيد – انظر: «فيض القدير» (ص 7)، حديث رقم (1191)، وانظر الحديث وتخريجه في «الإحسان» – الجزء الثاني – حديث رقم (731) طبع الرسالة.

(71) نقله الشوكاني في «نيل الأوطار» (9/ 29)، طبع دار الجبل – بيروت.

الجغرافية، والدينية والسياسية للحبشة في ذلك الوقت.

فلم يكن من الحكمة ولا من حسن الخطة أن يأمرهم بالهجرة إلى مكان مهمًا بَعُد، في شبه جزيرة العرب، فإن قريشًا – بما لهم من نفوذ ديني وأدبي – تستطيع أن تلاحقهم.

ولم يكن من الحكمة ولا من حسن الخطة أن يذهبوا إلى بلد تحت سيطرة الفُرس أو الروم، حيث يحكمها أباطرة لا يقبلون مثل هذه الدعوة الجديدة.

ولم يكن من الحكمة ولا من حسن الخطة أن يذهبوا بعيدًا إلى بلاد مثل الهند والصين، حيث تنقطع أخبارهم، وتكون الهجرة مهلكة لهم.

ولقد كانت الحبشة هي المكان المناسب جغرافيًا، فهو ليس جدَّ بعيد، ولا جد قريب، بل بينه وبين قريش بحر.

وكانت الحبشة هي المكان المناسب دينيًا، فقد كانوا أهل كتاب من النصارى الذين يُعدّون أقرب مَوَدَّة للمسلمين.

وكانت الحبشة هي المكان المناسب سياسيًا، فقد كان يحكمها رجل اشتهر بالعدل والنَّصَفَةَ، ولهذا قال الرسول لأصحابه: «**إن بها ملكًا أرجوا ألا تُظلموا عنده**».

وهذا يدلنا على أن الرسول وأصحابه لم يكونوا في عزلة عن العالم من حولهم، رغم صعوبة المواصلات بين الأقطار بعضها، وبعض.

ويدل على ذلك أيضًا موقفهم من حرب الفُرس والروم، وما كان من جدل بين المسلمين والمشركين في هذا، مما نزلت فيه أوائل سورة الروم: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ 2 فِيٓ

أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم: 2 – 3].

وهكذا ... فقد كانوا – وهم في فجر الدعوة ورغم الضعف والاضطهاد – على صلة بالصراع العالمي بين الدولتين العظميين في ذلك العصر، أو المعسكرين الكبيرين: الشرقي والغربي.

وأوضح من ذلك موقفه ﷺ في هجرته إلى المدينة، ففيها يتجلى التخطيط العلمي، والتوكل الإيماني جنبًا إلى جنب.

فلقد أعدّ عليه الصلاة والسلام من جانبه كل ما يستطيع البشر إعداده من الوسائل والاحتياطات والمعينات.

ولقد اطمأن إلى المهجر الذي سينتقل إليه، بعد أن بايع المؤمنين من الأوس والخزرج بيعة العقبة الأولى والثانية، واشترط لنفسه أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وذراريهم.

واطمأن إلى الرفيق الذي سيصحبه في رحلته الجاهدة بما فيها من أخطار، وما تحمله من مفاجآت، ولم يكن هناك أفضل من أبي بكر رفيقًا.

واطمأن إلى الفدائي الذي سيبيت مكانه، معرضًا نفسه لاحتمالات الخطر، وغدرات المتربصين، ولم يكن ثم أفضل من علي ابن عمه أبي طالب فارس الإسلام لهذه المهمة.

ورتب الدليل الخريت الذي يدله على الطريق، وما فيه من منعطفات ومخابئ يمكن أن تضلل عنه أعين الطالبين، فكان مشركًا أمينًا، هو عبد اللَّه بن أريقط. وهو ما أخذ منه الفقهاء جواز الاستعانة بالخبرة الفنية غير الإسلامية، مع الاطمئنان والأمان.

وهيأ الرواحل التي سيمتطيها هو وصاحبه ودليله في سفرهم الطويل، واتفقوا على المكان والموعد الذي يستقلون به الركائب.

وتخير المخبأ الذي يختفي فيه أيامًا معدودة، حتى تخف حدة الطلب، ويتملك القوم اليأس، واختاره في غير طريق المدينة، زيادة في التعمية على القوم فكان غار «ثور».

وأعد فريق الخدمة الذي يأتي بالزاد، والأنباء، خلال أيام الاختفاء، فكانت أسماء وعبد اللَّه بن أبي بكر، ومن بعدهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر، يأتي بغنمه فيحلبون منها، ويعفى على آثار أسماء وعبد اللَّه.

خطة محكمة الحلقات، متقنة التدبير، ولم تترك فيها فجوة دون أن تملأ، ولا ثغرة دون أن تسد، ووضع فيها كل جندي في دوره المناسب لظروفه وقدراته، فدور أبي بكر، غير دور علي، غير دور أسماء، وكل في موقعه الصحيح.

ومع هذا الإحكام الدقيق، كادت الخطة تخفق، واستطاع المشركون أن يصلوا إلى الغار، ويقفوا على بابه، وكان يكفي لكشف الأمر وإفساد الخطة، أن ينظر أحد القوم تحت قدميه، فيرى الرسول وصاحبه في الغار، وهذا ما خشيه أبو بكر، وصرح به للرسول ﷺ حين قال: لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا، فقال له كلمته المؤمنة الواثقة: «**ما ظنك يا أبا بكر باثنين اللَّه ثالثهما**»؟ ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: 40].

وهنا تجلى دور «التوكل» الحق، فبعد أن يبذل الإنسان ما في وسعه، ويتخذ من الأسباب والخطط ما يقدر عليه، ويدع ما لا يقدر عليه من مفاجآت القدر، للَّه

وحده. وهنا تقع ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ موقعها وتؤتي أكلها[72].

واقعنا المر لا يمثل أصالة ولا معاصرة:

على أن واقعنا اليوم يؤكد أننا نعيش خارج عصرنا، فلا نزال حتى الآن مستوردين لمنتجات الغرب، نشتري أغلى الأجهزة وأفخر السيارات المشتملة على كل الكماليات – التي قد تصنع لنا خاصة وبطلب منا – ونركب أحدث الطائرات، ولكنا لا نصنع شيئًا من هذا كله. لم نصنع محركًا «موتور» لطيارة ولا سيارة ولو صغيرة. ولذلك لو كف الآخرون أيديهم عنا، ما تحرك لنا مصنع، ولا حلقت بنا طائرة، ولا سارت بنا سيارة.

في بعض بلاد الخليج توقفت الحياة في نصف المدينة الكبيرة لأن إحدى ماكينات الكهرباء الكبرى توقفت، ولا يوجد من يصلحها، لا بد من خبير من بلادها التي صنعتها، ومن المصنع الذي صدرها!

التكنولوجيا لا تشترى من الخارج، وإنما تُصنع في الداخل.

قلت في عدد من كتبي ولا أزال أقول وأكرر: إن أمة «سورة الحديد» لم تتعلم بعدُ صناعة الحديد. فقد قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: 25].

وقوله: ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ إشارة إلى الصناعات الحربية، وقوله: ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾. إشارة إلى الصناعات المدنية. ونحن للأسف لم نتقن أيًا منهما.

لقد صنع الغرب «الكومبيوتر» وطوّر أجيالًا منه، جيلًا بعد جيل، حتى وصل

---

(72) انظر كتابنا «الرسول والعلم» (ص43 – 48) ط. الرسالة والصحوة.

اليوم إلى ما وصل إليه من مكنة وقدرة وسرعة، مع صغر الحجم وقلة النفقات، ولا يزال يبدع ويطوّر ويحسّن. ونحن العرب إلى اليوم مختلفون في مجرد تسميته: أهو العقل الإلكتروني، أم الدماغ الإلكتروني، أم الحاسب الآلي، أم الحسّابة أم المحساب أم الحاسوب؟؟!!

لقد ذكرت في كتاب «الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي» الشروط اللازمة للخروج من سجن التخلف، والدخول في عصر التكنولوجيا المتقدمة. وهي شروط بعضها يتعلق بالأصالة، وبعضها يتعلق بالمعاصرة، وبعضها يتعلق بكلتيهما.

ولا أود أن أعيد ما كتبته، ولكن أنبه عليه للرجوع إليه في موضعه، إن كنا جادين حقًا، أن ندخل العصر، ونلحق بالركب، ونسد الفجوة بيننا وبين عالم اليوم.

إن الذي نحن فيه لا يمثل أصالة، ولا يمثل معاصرة. إنه التيه والضياع.

إن أصالتنا الإسلامية والعربية لا يُتصور بحال أن تكون حائلًا بيننا وبين التقدم العلمي والتكنولوجي، كما توهم كتابات بعض «المتطرفين» العلمانيين، الذين يلهثون جاهدين للبحث عن نقطة ضعف فيما يكتبه بعض الإسلاميين. فإذا عثر على ذلك في كتاب مغمور، أو مقال في صحيفة أو نحو ذلك، طار به كل مطار، واتخذ منه حُجَّة لتوهين الموقف الإسلامي كله.

لقد زعم من زعم من هؤلاء: أن الإسلاميين يعتمدون – في بيان موقفهم من العلم – على فكرة الإعجاز العلمي في القرآن، ويتمحلون لذلك تمحلات كثيرًا ما تكون متعسفة وممجوجة.

وتصوير الموقف الإسلامي بمثل هذا غير عادل، وغير صحيح. فقد ذكرنا من الوجوه الموجبة لأخذ العلم المعاصر من أي وعاء كان، ما فيه الكفاية. ونزيد على ذلك أن الإسلام يدعو إلى العلم بأكثر من أسلوب في قرآنه وسُنَّته، وينشئ «العقلية العلمية» التي ترفض الخرافات والأوهام والعواطف، وتطالب بالنظر والتفكير والتدبر، وتنكر التقليد والجمود على ما كان عليه الآباء، أو السادة الكبراء، وتحكّم البرهان والدليل في كل شيء: الدليل المنطقي العقلي في العقديات والعقليات، ودليل المشاهدة في الحسيات والتجريبيات، والتوثيق النقلي في المسموعات والمرويات.

وهذا ما فصّلناه في كتبنا، وأقمنا عليه الأدلة من كتاب اللَّه تعالى، ومن سُنَّة رسوله ﷺ(73).

إن أصالتنا الإسلامية هي التي تهيئ لنا أفضل مناخ نفسي ـ وعقلي، يمكن أن تزدهر فيه نهضة علمية تكنولوجية راسخة، يقوم عليها مجتمع يرى هذه النهضة عبادة وفريضة وضرورة. وهذا المناخ هو الذي ترعرعت في ظلاله حضارتنا العربية الإسلامية، التي مزجت بين الدين والدنيا، وجمعت بين العلم والإيمان، ووصلت الإبداع المادي بالسمو الروحي والخُلُقي.

وهذا ما يجب أن نحرص عليه حين نسعى للحصول على علم العصر ـ وتكنولوجيا العصر: أن نربط ذلك بقيم الإيمان والدين والأخلاق، حتى لا يكون العلم معول دمار، بل أداة عمار، وألا يعين الإنسان على عمارة دنياه بخراب آخرته،

---

(73) انظر في ذلك كتابنا «الرسول والعلم»، فصل «الرسول والعلم التجريبي»، واقرأ تحت عنوان «علمية لا علمانية» من كتابنا «الإسلام والعلمانية».

وإشباع شهواته البهيمية، بجوع روحه الإنسانية.

3 - **النظرة المستقبلية:**

ومن مقتضيات المعاصرة ألا يستسلم الإنسان لظروف حاضره، بل يتطلع دائمًا إلى المستقبل. ومهما يضغط عليه الواقع بهمومه الآنية، ومشكلاته اليومية، وجراحه المستمرة في النزيف، فإنه يرنو إلى الغد، ويستشرف للمستقبل، يعدّ له العدة، ويأخذ له الحيطة، محاولًا أن يسد ما يتوقع من ثغرات، وأن يعالج ما يطرأ من آفات، وأن يغرس نواة اليوم لتصبح نخلة أو شجرة زيتون بعد سنوات، وأن يفكر ماذا سيواجه الأبناء والأحفاد في الأجيال القادمة، وما الأخطار التي ترتقبهم؟ والآمال التي يرتقبونها؟ وهل في الإمكان أن ندخر من يومنا لغدنا، أو لغد ذرارينا من بعدنا، وأن نقيهم بعض ما أصابنا من محن؟ وما غشينا من فتن؟ وما حلّ بنا من كوارث لم نأخذ لها الأهبة؟

وهل يمكن للإنسان أن يطمح إلى مستقبل تغلب فيه الآمال يأس اليائسين، وتجف فيه دموع البائسين، وينتصر فيه الخير على الشر، والعدل على الظلم، والرخاء على الفقر، والعلم على الجهل، والتسامح على التعصب؟

إن من سمات عصرنا التطلع إلى مستقبل ومحاولة استشفافه، أو توقع ما يمكن أن يحدث فيه، لا عن طريق الكهانة والتنجيم، بل عن طريق الدراسة والرصد، وبناء النتائج على المقدمات، والمسببات على الأسباب، كما تفعل «الأرصاد الجوية» بالنسبة للرياح والأمطار والحرارة والبرودة.

يقول الدكتور المهدي المنجرة وهو أحد المهتمين البارزين من العرب بهذا اللون من الدراسة:

«إن الدراسات الاستقبالية تُعد ظاهرة حديثة النشأة تعود إلى نهاية الحرب العالمية الثانية، وأول من باشرها مؤسسة «راند» بناء على طلب البنتاجون في عام 1947، ولم تشهد انطلاقتها الحقيقية إلا مع نهاية الستينات».

وقد تتبع زكي نجيب محمود في مقاله «المستقبل المحسوب» بدايات الاهتمام بهذه الدراسات منذ مطلع القرن العشرين. وتحدث قسطنطين زريق في كتابه «نحن والمستقبل» عن هذا النمط العلمي الريادي المعاصر في الاهتمام المستقبلي، الذي يتميز بصفته العلمية، وبتمسكه بالمنطق الاختباري، وبأنه جهد جماعي رآه ينتسب إلى عالمنا المعاصر.

ويعلق الدكتور أحمد صدقي الدجاني في بحثه القيم: «دراسة المستقبل برؤية مؤمنة مسلمة»[74] بقوله:

واضح أن ظهور الدراسة المستقبلية بمعناها الحديث وثيق الصلة بثورة العلم التقني التي تفجرت في عالمنا المعاصر هذا، وأثمرت ثورة في الاتصال وثورة في المعلومات، وأحدثت تحولات وتحولات. وقد أورد «هوج ستيوارت» في كتابه «تذكّر المستقبل» تسعة تحولات تحدّثت عنها «جون نيبسبت» عام 1982، وسماها توجهات عظمى «تحول من مجتمع صناعي إلى مجتمع معلوماتي، انتقال من انقياد للتقنية إلى استجابة إنسانية لها، انتقال من ضيق الاقتصاد القومي إلى شمول الاقتصاد العالمي، تحول من المركزية إلى اللامركزية، تزايد الاعتماد على الذات في مقابل الاعتماد على المؤسسات، التحول من ديموقراطية الإنابة إلى ديموقراطية

(74) نشرته مجلة «المسلم المعاصر» في عددها الثاني والستين: نوفمبر، ديسمبر سنة 1991، يناير سنة 1992.

المشاركة، تحول من نظام هرمي إلى نظام شبكي، انتقال من مناطق صناعية إلى مجتمعات جديدة، تحول من مجتمع خيارات محدودة إلى خيارات عديدة».

ولما كانت ثورة العلم التقني قد تفجرت في الغرب، فإن ظهور الدراسة المستقبلية بمعناها الحديث بدأ هناك. وقد أولتها عناية خاصة المؤسسات العسكرية والشركات متعددة الجنسيات عابرة القارات. وهكذا بدت الصلة وثيقة بين الدراسات المستقبلية والدراسات الاستراتيجية.

كان طبيعيًا أن يجرى بحث عن اسم يُطلق على هذه الدراسة المستقبلية التي ظهرت بمعناها الحديث، وأن يجتهد المشتغلون بها فيطلقوا عليها هذا الاسم أو ذاك؛ وهكذا ظهر اسم «المستقبلية»، ولم يلبث «جاستون بيرجر» الفرنسي أن سماها عام 1960 «علم الريادة». ثم استخدم «أوسيب فليشتم» الألماني عام 1966 اسم «علم المستقبل» في كتابه «علم التاريخ وعلم المستقبل»، وهناك من سماها «علم حساب المستقبل».

وإن كان الدكتور الدجاني يتحفظ على اعتبار ذلك علمًا، بل يراه استشرافًا وتشوفًا ورؤية؛ فهل يتسع صدر الإسلام – عقيدة وشريعة وفكرًا – لهذا النوع من التوجه المستقبلي؟ أو يضيق به ويغلق الباب دونه؟

إن كثيرًا ممن لم يتعمقوا في فهم الإسلام يحسبون أن الدين عامة – والإسلام خاصر – لا يرحب بالنظرة المستقبلية، التي تستوجب استشراف الغد، والتخطيط له، والإعداد لما عسى أن تتخمض عنه الليالي والأيام.

وذلك لأن الدين – في نظرهم – يربط الإنسان بماضيه وتراثه، الذي غالبًا ما يُنظر إليه نظرة فيها لون من «التقديس»، الذي يحيله إلى «قفص» يحول دون حركته

وانطلاقه، وإن كان في نظره قفصًا من ذهب! أما المستقبل فهو بيد اللَّه، وهو غيب لا يعلمه إلا اللَّه. ولا دخل للإنسان في توجيهه. وإنما يفرضه عليه القدر الأعلى من فوق، دون أن يكون له كسب أو اختيار.

هكذا يفكر بعض المتدينين، وخصوصًا العوام، وأشباه العوام. وأقصد بأشباه العوام كثيرًا من الجامعيين، وكبار المتعلمين، الذين لا يتميزون كثيرًا في أفكارهم الدينية عن العوام والأميين، وإن كانوا في تخصصاتهم من المرموقين، الذين قد يُشار إليهم بالبنان!

وهذا اللون من التفكير هو الذي يعتمد عليه جماعة العلمانيين في تصوير النظرة الإسلامية للمستقبل.

ومن أراد أن يعرف النظرة الإسلامية للمستقبل فليعرفها من القرآن الكريم والسُنَّة النبوية. كما أوجزتُ بيان ذلك في بعض كتبي[75].

القرآن الكريم والمستقبل:

فالمتدبر للقرآن الكريم يجده منذ العهد الملكي يوجه أنظار المسلمين إلى الغد المأمول، والمستقبل المرتجي، ويبين لهم أن الفلك يتحرك، والعالم يتغير، والأحوال تتحول، فالمهزوم قد ينتصر، والمنتصر قد يُهزم، والضعيف قد يقوى، والدوائر تدور، سواء أكان ذلك على المستوى المحلي أم العالمي.

وعلى المسلمين أن يهيئوا أنفسهم، ويرتبوا بيتهم لما يتمخض عنه الغد القريب أو البعيد، فكر آتٍ قريب.

---

(75) «أولويات الحركة الإسلامية» (ص 121 – 124)، طبع الرسالة.

نقرأ سورة «القمر» المكية، فنجد فيها قول اللَّه تعالى عن المشركين، وهم أولو القوة والشوكة، والعدد والعدة: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ 45 بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: 45 - 46].

ذكر ابن كثير في تفسيره عن ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: لما نزلت ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ قال عمر: أي جمع يهزم؟ أي جمع يغلب؟ فلما كان يوم بدر رأيت رسول اللَّه ﷺ يثب في الدرع، وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ فعرفت تأويلها يومئذ(76).

وروى البخاري عن عائشة قالت: نزل على محمد ﷺ بمكة، وإني لجارية ألعب: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾(77).

فكان المقصود بهذه الآية وأمثالها تهيئة الذهنية المسلمة، والنفسية المسلمة، للتغير الحتمي، والغد المرتقب.

وعلى المستوى العالمي نجد آيات الكتاب العزيز تتحدث عن ذلك الصراع، التاريخي بين الدولتين العظميين: فارس والروم - وقد كان صراعًا اهتم له الفريقان في مكة: المسلمون والمشركون - فتبشر الآيات الجماعة المؤمنة بأن المستقبل للروم من أهل الكتاب، على الفرس المجوس عباد النار، وأنهم - وإن غلبوا اليوم - سيغلبون في بضع سنين، وفي هذا تقول السورة جازمة: ﴿الٓمٓ 1 غُلِبَتِ ٱلرُّومُ 2 فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ 3 فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ 4 بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الروم:

(76) «تفسير ابن كثير» (4/ 266)، طبع الحلبي.
(77) المصدر السابق.

1 – 5].

هذه الآيات الكريمة من كتاب اللَّه تعالى تدلنا على أمرين:

1 – مدى وعي المجموعة المسلمة – على قلتها وضعفها المادي – بأحداث العالم الكبرى، وصراع العالقة من حولها، وأثره عليها إيجابًا وسلبًا.

2 – تسجيل القرآن لهذه الأحداث، وتوجيه النظر إلى عوامل التغير، والانتقال من الواقع إلى المتوقع في ضوء السنن.

وفي سورة المزمل المكينة نقرأ الآية الأخيرة من السورة التي تتضمن تخفيف اللَّه عن نبيه ﷺ ومن معه في قيام الليل وقراءة القرآن، لما ينتظرهم من مهام جسيمة في المستقبل، فسيواجهون أعداء يقاتلونهم ويصدونهم عن سبيل اللَّه، فليوفروا بعض قوتهم لهذا اللقاء المفروض عليهم.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل:20].

وفي القرآن آيات كثيرة تتحدث عن المستقبل، حاملة البشرى والأمل للأمة بظهور الدين، والتمكين له، واستخلاف أهله في الأرض، وبروز آيات اللَّه في الآفاق وفي الأنفس حتى يتبين الحق.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: 33، والفتح: 28، والصف: 9].

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗا﴾ [النور: 55].

﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَا﴾ [النمل:93].

﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ﴾ [فصلت: 53].

الرسول والمستقبل:

وفي السنة النبوية أحاديث جمة تتحدث عن المستقبل كذلك، وهي التي تذكر عادة في أبواب «الفتن» و«الملاحم»، و«أشراط الساعة».

والانطباع العام عند كثيرين عن هذه الأحاديث أنها توحي بالتشاؤم واليأس من المستقبل، وانتصار الشر على الخير، والضلال على الهدى. وهو انطباع لا يقوم على استقصاء هذه الأحاديث وتأملها، وموازنة بعضها ببعض، كما أنه يغفل «المبشرات» التي تحدثت عن انتصار الإسلام وانتشار دعوته، واتساع دولته، وعودة خلافته، وهي جملة من الأحاديث الصحاح.

والقارئ المتأمل لسيرة رسول الله ﷺ يتبين له أنه لم يكن غافلًا عن مستقبل دعوته، بل كان يفكر فيه، ويخطط له، في حدود ما هيأ الله له من فرص، وما آتاه من أدوات وأسباب.

ويكفي أن نقرأ عن جهده ونشاطه ﷺ في مواسم الحج التي تجمع ممثلين من جميع قبائل العرب، وكيف كان عليه الصلاة والسلام يعرض دعوته عليهم، ويطلب نصرتهم، ويعدهم بوراثة ممالك كسرى وقيصر، ليعلم إلى أي أفق كان يرنو بصره ﷺ.

وكان الرسول الكريم – وهو في مكـة وأتباعـه قليـل مستضـعفون في الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس – مؤمنًا بمبدأين أساسيين:

الأول: أن هذا الواقع لا بد أن يزول، لأنه يحمل عوامل زواله، وأن البديل له هو الإسلام، وأن ليل الجاهلية الحالك والجاثم سيعقبه فجر صادق، وما على المـؤمنين إلا أن يصمدوا ويصبروا ولا يستعجلوا الثمرة قبل إبانها.

لما اشتد الأذى بالصحابة في مكة – وخصوصًا المستضعفين منهم – جاء خباب بن الأرت إلى رسول اللَّه ﷺ يشكوا إليه ويستنجد به، وهو متوسـد رداءه في ظـل الكعبة. فقال بلسانه ولسان المعذبين من أمثاله: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: **«قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيهـا، ثـم يـؤتي بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين! ويمشـط بأمشـاط الحديـد مـا دون لحمه وعظمه، ما يصده ذلك عن دينه! واللَّه ليـتمن اللَّه هـذا الأمـر حتـى يسـير الراكب مـن صـنعاء إلى حضرـموت، فـلا يخـاف إلااللَّه والـذئب عـلى غنمـه، ولكنكم تستعجلون»**(78).

يؤيد ذلك ما قاله عليه الصلاة والسلام لسراقة بن مالك في رحلة الهجرة، وهـو مطارد مباح الدم: «**كيف بك إذا ألبسك اللَّه سواري كسرى؟**».

وتبشيره لأصحابه بفتح فارس والروم، وهو محاصر يحفر الخندق!

الثاني: أن هذا المستقبل المنشود إنما يتحقق وفق سـنن اللَّه في رعايـة الأسـباب، وإعداد المستطاع من العدة، وإزاحة العوائق من الطريق، وترك ما عدا ذلك للإرادة

---

(78) رواه البخاري.

الإلهية، فما يعجز عنه البشر لا تعجز عنه القدرة المطلقة[79].

الخلفاء الراشدين والمستقبل:

ومن تأمل في سيرة الصحابة، وخصوصًا الخلفاء الراشدين، أستبان له من وقائع شتى اهتمامهم بالمستقبل وتفكيرهم فيه، واحتياطهم له.

وهذا ما حفزهم إلى جمع القرآن في عهد أبي بكر رضي الله عنه، لما استحر القتل بالقراء في معركة اليمامة من حروب الردة، حتى قيل إن سبعمائة منهم قد استشهدوا في ذلك اليوم، فأشار عمر على أبي بكر بذلك الجمع، مخافة أن يموت أشياخ القراء، كأُبي وابن مسعود وزيد بن ثابت. وتردد أبو بكر في أول الأمر، ثم شرح الله صدره لتنفيذ ما اقترحه عمر، رضي الله عنهما. وتم تكليف زيد بن ثابت بالقيام بهذا الأمر. وكان من توفيق الله تعالى، ومن أسباب حفظ القرآن وصيانته مما أصاب الكتب السماوية السابقة. تحقيقًا لوعد الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: 9].

ونحو ذلك ما فعله الخليفة الثالث عثمان رضي الله عنه في جمع الناس على مصحف واحد، يقرأ بحرف واحد، وإلغاء كل المصاحف الشخصية التي كتبها بعض الصحابة مشتملة على تعليقات وتفسيرات.

وإنما فعل عثمان ذلك، لأن الناس اختلفوا في القراءات، بسبب تفرق الصحابة في البلدان، واشتد الأمر في ذلك، وعظم اختلافهم وتشبثهم، ووقع بين أهل الشام والعراق ما ذكره حذيفة بن اليمان حين اجتمعوا في غزوة أرمينية، فقرأت كل

---

(79) راجع ما ذكرناه عن التخطيط للهجرة في حديثنا عن «عصر العلم والتكنولوجيا».

طائفة بما روى لها، فاختلفوا وتنازعوا، وأظهر بعضهم إكفار بعض، والبراءة منه، فأشفق حذيفة مما رأى منهم، فلما قدم إلى المدينة دخل إلى عثمان قبل أن يدخل إلى بيته، فقال: أدرك هذه الأمة قبل أن تهلك! قال: في ماذا؟ قال: في كتاب اللَّه. ووصف له ما رأى وما سمع، وقال: إني أخشى عليهم أن يختلفوا كما اختلف اليهود والنصارى! وقد شاور عثمان الصحابة بما فيهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه. فوافقوا على رأيه في أن يجتمع الناس على قراءة فإنهم إذا اختلفوا اليوم كان من بعدهم أشد اختلافًا(80).

ومن أبرز دلائل الفكر المستقبلي عند الصحابة: موقف عمر من سواد العراق بعد فتحه، ورفضه تقسيمه على الفاتحين، وفقًا لما فهمه أكثرهم من آية سورة الأنفال: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ . . .﴾ [الأنفال: 41].

وتوقف عمر ومعه من فقهاء الصحابة أمثال علي ومعاذ، وكان تفكير عمر في الأمر منصبًا على المستقبل، مستقبل الأجيال المسلمة التي ينتظر أن تطرق أبواب الحياة: ماذا يبقى لتحقيق مطالبها وسد حاجاتها، إذا استولى هذا الجيل المحظوظ على تلك الغنائم الهائلة؟ وجيوش المسلمين وثغورهم ومصالحهم العامة، من أين ينفق عليها في المستقبل.

لقد قال عمر بصراحة للصحابة المطالبين بالتوزيع: أتريدون أن يأتي آخر الناس، وليس لهم شيء؟!

---

(80) انظر: «تفسير القرطبي» (1/ 44، 45)، المقدمة.

ولهذا رأى هو ومن معه من الصحابة وقف رقبة الأرض لصالح أجيال الأمة، على أن تبقى في يد أربابها، ويفرض عليها خراج مناسب لمصلحة بيت المال أو الخزانة الإسلامية العامة. وعلل عمر ذلك بقوله: إني أردت أمرًا يسع أول الناس وآخرهم. وكذلك قال معاذ[81].

وأعانه على إقناعهم ما فهمه من آيات توزيع الفيء في سورة الحشر، حيث أشركت فيه الجيل الحاضر من المهاجرين والأنصار، ثم ألحقت بهم: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [الحشر: 10].

وبهذا بين عمر ومن معه أن الأمة متكافلة في سائر أزمانها، كما هي متكافلة في سائر أقطارها، تكافل زماني، وتكافل مكاني؛ لا يجوز الجيل أن يأكل وحده حق الأجيال اللاحقة.

أصناف الناس أمام الماضي والمستقبل:

والناس أمام الماضي والمستقبل - أو التراث والعصر - ثلاثة أصناف: طرفان وواسطة:

1 - **الموغلون في الماضوية:**

الصنف الأول: ماضويون تراثيون موغلون في الماضوية، لا يكادون يرنون إلى الأمام، أو المستقبل، أو يتعمقون في الحاضر، فهم مشدودون أبدًا إلى الخلف، سجنوا أنفسهم داخل قضبان التراث، ولا يتصورون العيش في الحاضر أو

(81) انظر: «الخراج» لأبي يوسف (ص23، 24)، طبع السلفية، و «الأموال» لأبي عبيد (ص 58، 59)، وانظر: كتابنا «فقه الزكاة» (1/ 409، 410)، نشر مكتبة وهبة.

المستقبل، إلا باجترار التراث كله، بجزئياته وتفاصيله، وخصوصًا فيما يتعلق بالتشريع والتوجيه والسلوك. وهم ينسبون موقفهم إلى الدين!

من سمات هؤلاء:

(أ) أنهم يضفون لونًا من القداسة على التراث، فهو حق كله، خير كله، صواب كله، مع أن الدراسة المنصفة للتراث تؤكد أنه لا يخلو من الباطل في الاعتقادات، والشرور في الأفعال، والخطأ في الآراء والأقوال.

وقد كان في عصر النبوة منافقون حدثنا عنهم القرآن في عدد من سوره، وكان فيه من أقيم عليه الحد، ومن ذمه الله ورسوله.

وكان في عصر الصحابة من الفتن ما هو معلوم، وإن كنا لا نجحد فضل هذا العصر في عمومه وجملته.

(ب) وهم يسرفون في رد كل جديد إلى قديم من التراث، وإن لم يقم على ذلك برهان، فنظرية «التطور» توجد عند علماء المسلمين، مع الاختلاف البين بين ما ذهب إليه المسلمون، وما ذهب إليه «دارون» ومن تبعه. والطب الحديث يوجد عند الرازي وابن سينا، وعلم الاجتماع المعاصر لا يخرج عن ابن خلدون، إلى غير ذلك من المبالغات التي يدفع إليها حماس يضيع الحقائق.

ونحو هذا من يتمحل لرد النظريات العلمية الحديثة إلى آيات من القرآن الكريم، مع أن القرآن الكريم في غنى عن هذا التمحل.

(جـ) وهم يعتبرون كل زمن شرًا مما قبله، إلى أن تقوم الساعة، بناء على ما فهموه من ظواهر بعض الأحاديث، التي يفهمونها فهمًا حرفيًا، رغم مخالفتها

لنصوص أخرى، وللواقع التاريخي أيضًا[82].

(د) ومنهم من يتعلق بالصورة والشكل عند السلف، لا بالروح والجوهر، وبأعمال الجوارح لا بأعمال القلوب، وبالآداب الظاهرة، لا بالعبادات الباطنة فأكبر همه تقصير الثوب، وإطالة اللحية، وعدم الأخذ منها، وإحفاء الشارب، والأكل باليد، لا بالملعقة والشوكة، والأخذ بالأقوال الجزئية للسلف، لا بمنهج الاجتهاد والتفكير عندهم.

وهؤلاء قلة قليلة، وإن كان لهم وجود في الساحة العربية والإسلامية، وآفتهم قصور فهمهم للدين وللعصر جميعًا، فقد جمدوا عند أفكار معينة في الدين، وأقوال محددة في التراث، انتهت بهم إلى الوقوف عند صورة الدين لا حقيقته، وشكله لا جوهره، وتمسكوا بظواهر النصوص وحرفيتها، لا بمقاصدها وأهدافها.

حتى سألني بعض الطلاب والطالبات في جامعة قطر عن أناس ينتقلون من جنوب قطر إلى شمالها، للدعوة وتبليغ رسالة الإسلام إلى الناس، ولكنهم أبوا إلا أن يذهبوا مشيًا على أقدامهم، وأمتعتهم على ظهر جمل يصحبونه في رحلتهم، ولما سئلوا: لماذا لم تركبوا السيارات وهي متاحة؟ قالوا: نحن نتبع السنة في الدعوة!!

هل هذا متصور؟!

وهذا يذكرني بما حكاه لي بعض الإخوة في بعض البلاد العربية أن داعية من هذا النوع وقف يومًا يقول: الحمد لله الذي سخر لنا الكفار من الإفرنج وغيرهم،

---

(82) مثل حديث: «**لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شر منه**». انظر: تعليقنا على هذا الحديث في كتابي «كيف نتعامل مع السنة النبوية» (ص87 - 90).

يقدمون لنا العلم والتكنولوجيا لنتفرغ نحن لعبادة اللّه تعالى وطاعته!!

وجهل المسكين أن تخلفنا في مضمار العلم والتكنولوجيا، يعتبر جريمة في نظر الإسلام، لأننا لم نعد ما استطعنا من قوة، ولم نقم بحق فرض الكفاية، في إتقان كل علم به قوام الدين أو الدنيا، كما قرر علماؤنا من قبل، وغدونا في كثير من الأمور عالة على غيرنا من هؤلاء «الكفار»! فأضعنا واجبات كثيرة، لأنا أضعنا وسائلها ومقدماتها اللازمة لها، والتي قال فيها علماؤنا: «ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب».

إن هذا الصنف من «الماضويين» أو «التراثيين» غائبون عن العصر ـ وإنجازاته وتيارته، وكأنما خرجوا لتوهم من مقابر دفنوا فيها منذ خمسة قرون، مع أن بعضهم قد يكون خريجًا في أحدث الجامعات العصرية، وربما كان مهندسًا أو طبيبً، أو صيدليًا، أو محاسبًا، أو محاميًا، أو غير ذلك مما تفرزه جامعات عصرنا فهو عصري الشهادة، ماضوي الفكر.

2 - **المغرقون في المستقبلية:**

الصنف الثاني: مستقبلون مغرقون في المستقبلية، لا يكادون يلتفتون إلى الوراء، إنما ينظرون أبدًا إلى الأمام. يرون أن الإنسان يتطور دائمًا إلى ما هو أحسن وأمثل، فلماذا العودة إلى الخلف، أي إلى الماضي أو التراث، أو التاريخ؟

نحن أبناء اليوم والغد، لا أبناء الأمس. فلماذا التشبث بالأمس، واعتباره أفضل من اليوم؟ ولماذا التمسك بالتراث إلى حد التقديس؟

أهم ما لدى الإنسان عند هؤلاء هو المخيلة، إذ كان أهم ما في الإنسان عند الأولين هو الذاكرة.

كأنما يريدون أن يلغوا الماضي من الزمن، و «أمس» من اللغة، والفعل الماضي من الكلام، ويحذفوا الوراء من الجهة، والذاكرة من الإنسان.

التراث عندهم متهم، والماضي لديهم مبغض، والسلف في نظرهم مجرحون، وتاريخ الأمة ظلمات بعضها فوق بعض.

هم مع التراث كما الشاعر في جيران سوء له:

إن يسمعوا الخير أخفوه، وإن شرًّا أذاعوا، وإن لم يسمعوا كذبوا!

ما في هذا التاريخ أو هذا التراث من حسنات وإنجازات علمية وحضارية وأخلاقية، منسي أو مسكوت عنه، وما فيه من فتن وانحرافات، لا يخلو منها تاريخ بشر، ينظرون إليه من خلال «مكروسكوب» يضخم الصغير حتى يجعله كبيرًا.

لقد رأينا من هؤلاء من يهاجم «السلف الصالح» ويتهم الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز، بتخريب الدولة الإسلامية، لجهله بشئون الإدارة والسياسة![83].

رأينا من هؤلاء من سخر من كل من يكشف عن إنجاز علمي أو حضاري حقيقي - غير متمحل - سبق به العرب والمسلمون، ومن يردد مع المستشرقين المتحاملين: أن المسلمين لم يكن لهم فضل ولا أصالة في علم ولا عمل ولا فن ولا أدب.

فعلومهم وفلسفتهم منقولة عن اليونان، وفقههم متأثر بتشريع الرومان، ونظمهم مقتبسة من الفرس، وحضارتهم خليط مركب من الأمم السابقة.

---

(83) هذا ما كتبه حسين أحمد أمين في بعض الصحف القاهرية، انظر: ردنا عليه في كتابنا «فتاوى معاصرة» (2/ 715 - 724)، تحت عنوان: خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز هل كان جاهلًا بالسياسة؟

والإسلام – بعقيدته وشريعته وأخلاقه – محسوب على هذا الماضي، أو هذا التراث، فهو لا يصلح لهذا العصر، وليس كما يقول المشايخ والدعاة: إنه صالح لكل زمان ومكان. وكيف تصح هذه المقولة مع تغير الزمان. واختلاف المكان، وتطور الحياة والإنسان؟

على الإسلام أن يخلى مكانه لأفكار العصر و «أيديوبوجيات» العصر، وإن كان لا بد من بقائه، فعليه أن يبقى محصورًا في حنايا الضمائر، بوصفه علاقة بين الإنسان وربه، فإن سمح له بالخروج منها، فليكن في حدود دور العبادة «الموجهة» التي لا تتدخل في أمور الحياة، وسياسة الأمة، إذ لا سياسة في الدين، ولا دين في السياسة!

ومن هؤلاء من يسمح للإسلام بدخول العصر، بشرط أن تعاد قراءته، ويعاد تفسيره من جديد، دون تمييز بين الثوابت والمتغيرات، أو بين منطقة القطعيات ومنطقة الظنيات. فهم يرون أن «يتعصرن» الإسلام، لا أن يسلم العصر، ويطالبون الإسلام أن يتطور، ولا يطالبون التطور أن يسلم.

3 – **دعاة الوسطية:**

والصنف الثالث: هم الذين سلموا من إفراط الأولين وتفريط الآخرين، وهداهم اللَّه إلى الموقف الوسط، وهم الذين قال فيهم الإمام علي كرم اللَّه وجهه: «عليكم بالنمط الأوسط الذي يلحق به التالي، ويرجع إليه الغالي».

إنهم يجتهدون أن يقيموا الموازين القسط بين عناصر الزمن كله، الماضي والحاضر والمستقبل، فهم يعتبرون بالماضي، ويعايشون الحاضر، ويستشرفون المستقبل.

يفرقون بين الإسلام والتراث، فالإسلام كلمة اللَّه العليا، وأمره الذي لا يعصى،

والتراث صنع البشر، ونتاج عقولهم وإرادتهم، حتى التراث الديني نفسه، هو عمل العقل الإسلامي.

يعلمون أن الخطأ البين: اعتبار الإسلام ماضيًا، فالإسلام هو الماضي والحاضر والمستقبل جميعًا.

إنهم لا يرفضون القديم لمجرد قدمه، ولا يعيشون الحديث لمجرد حداثته؛ بل يستمسكون بكل قديم نافع، ويرحبون بكل حديث صالح.

إنهم ينكرون على الفريق الأول جمودهم على كل قديم، وعلى الفريق الآخر انفتاحهم على كل حديث. وفي كل من القديم والحديث خير وشر، وصواب وخطأ، وصلاح وفساد. والموقف المقبول شرعًا وعقلًا هو القصد إلى اجتناب الشر والخطأ والفساد، وتحرى الوصول إلى الخير والصواب والصلاح، بغض النظر عن قدم ذلك أو حداثته.

ثم إن القدم والحداثة أمران نسبيان، فرب حديث عند قوم يعتبر أمرًا قديمًا كل القدم عند غيرهم، على أن الحديث لا يبقى حديثًا أبد الدهر، فقديم اليوم كان حديث الأمس، وحديث اليوم سيصبح قديم الغد.

وقد كان من قبلنا – على عكس السائد اليوم – يعظمون القديم، ولا يحتفلون بالحديث، ويرون الأقدمين أعلى مكانة من المحدثين، والأوائل أفضل أبدًا من الأواخر. فقال أحد الشعراء ناقدًا هذا التوجه[84]:

قل لمن لا يرى المعاصر شيئًا ويرى للأوائل التقديما

(84) انظر: «مقدمة تاج العروس في شرح القاموس» للزبيدي.

إن هـذا القـديم كـان حـديثًا وسيمسى هـذا الحـديث قـديمًا

إن هـذا الفريـق مـن دعـاة الوسـطية يرحبـون بـالتطور والتجديـد في الحيـاة والمجتمع، بل في الدين نفسه، الذي نوه رسوله بـ «المجددين» فيه، الـذين يبعـثهم اللَّه في كل قرن لهذه الأمة: «**ليجددوا لها دينها**»[85].

فهم يقامون الجمود البليد، ويحاربون التقليد، ويدعون إلى الاجتهاد، ويؤمنون بتطور العلم والفكر. إنهم يؤمنون أن الثبات والتغـير ظاهرتـان متجاورتـان مـن ظواهر الكون والحياة والإنسان. فكل منها فيه الثابت والمتغير، وإن كان الملاحـظ أن الجوهر ثابت، والأعراض هي المتغيرة أبدًا.

كما أنهم يعلمون أن التطور أو التغير ليس دائمًا إلى الأحسن والأمثل، فكثيرًا ما يكون من حسن إلى سيء، ومن سيء إلى أسوأ. وهذا مـا يشـهد بـه التـاريخ، ومـا يصدقه الواقع. فالتطور لا يقتصر عـلى الجانـب العلمـي والمعـرفي، الـذي يتقـدم باستمرار، بل يشمل جوانب الإيمان والقيم والسلوك أيضًا.

لهذا يرحبون بالتطور إذا كان ارتقاء إلى ما هو أفضل، وينكرونه إذا كان في جهة الهبوط والانحدار.

كما أنهم يميزون بين الثوابت والمتغيرات، بـين مـا يقبـل التجديـد والاجتهـاد والتطور وما لا يقبله.

فهم يدعون إلى الثبات في المقاصد والغايات، وإلى المرونة والتطـور في الوسـائل

---

(85) إشارة إلى الحديث الـذي رواه أبـو داود في «سـننه» والحـاكم في «مسـتدركه»، والبيهقـي في «معرفة السنن» عن أبي هريرة وصححه غير واحد. انظر: بحثنا حول هـذا الحـديث في كتابنـا «من أجل صحوة راشدة» فصل: «تجديد الدين في ضوء السنة».

والآلات.

الثبات في الأصول والكليات، والمرونة والتطور في الفروع والجزئيات.

الثبات في دائرة القطعيات والمحكمات، والمرونة والتطور في محيط الظنيات والمتشابهات.

الثبات في حقائق الدين، والمرونة والتطور في أمر الدنيا(86).

هذا الفريق من دعاة الوسطية الإسلامية يؤمنون بالعقيدة أساسًا، وبالعقل نبراسًا، وبالشريعة منهاجًا، وبالأخلاق سياجًا، وبالاجتهاد مذهبًا، وبالتجديد مشربًا، وبالعلم مركبًا، وبالانفتاح على العالم دون ذوبان، وبالتمسك بالأصول دون جمود على كل ما كان.

يؤمنون بما نقله العلامة ابن عبد البر النمري: ليس هناك كلمة أضر بالعلم والعلماء من قول القائل: «ما ترك الأول للآخر شيئًا»!(87)، فكم ترك الأول للآخر، وكم في الإمكان أبدع مما كان. وهو ما شهدت به العصور والأزمان. ويرددون معه قوله: «وليس هناك كلمة أحض على طالب العلم من قول الإمام علي كرم الله وجهه في خطبة خطبها: واعلموا أن الناس أبناء ما يحسنون، وقيمة كل امرئ ما يحسنه»(88).

ولئن قيل ذلك في شأن الفرد، إنه ليصدق في شأن الأمم. فقيمة كل أمة ما تحسنه. فليس المهم أن تعمل، لكن المهم أن تحسن إذا عملت؛ فإن الله كتب

(86) انظر: فصل «الجمع بين الثبات والمرونة» من كتابنا «الخصائص العامة للإسلام».
(87) انظر: «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر (1/ 99) طبع المنيرية.
(88) انظر: «جامع بيان العلم وفضله» نفس الجزء والصفحة.

الإحسان على كل شيء.

إن تيار الوسطية لا يغفل المستقبل كما لا ينسى الماضي. وفي مكتبة الإسلاميين اليوم أكثر من كتاب يتحدث عن المستقبل من منظور الإسلام(89).

وقد أقام بعض الإسلاميين مركزًا لدراسات المستقبل الإسلامي مقره «لندن». وهو الذي أقام ندوته الشهيرة في الجزائر (سنة 1990) عن قضايا المستقل الإسلامي.

وهذا التقسيم الثلاثي واقعي ومنطقي، وترجيح فريق الوسط هو الذي يدعو إليه العقلاء، أيًا كانت ثقافتهم. ولا بأس أن أستعير هنا كلمات الفيلسوف الأديب الدكتور زكي نجيب محمود في التعبير عن هذا المعنى ذاته في كتابه «ثقافتنا في مواجهة العصر» قال: إن الثقافة العربية الحديثة إذ واجهت العصر بمقولاتها، لم تجد مقولاتها تلك مُعدة كل الإعداد لتلقي مادة العصر، فانقسم رجال الثقافة عندنا ثلاثة مذاهب:

مذهب وجد الصيد نافرًا من القفص، لكنه لم يزل به حتى طوعه بعض التطويع فاستكان له ولو إلى حين، وفي رحاب هذا المذهب تقع الكثرة الغالبة من أعلام الأدب والفكر في تاريخنا الحديث: محمد عبده، والعقاد، وطه حسين، وتوفيق الحكيم وغيرهم، فهؤلاء جميعًا – على اختلاف نزعاتهم وأذواقهم – لم يرفضوا العصر، لكنهم حاولوا أن يصوغوه في قوالب الثقافة العربية الأصيلة، مع تفاوت

(89) مثل كتاب الشيخ محمد الغزالي عن «مستقبل الدعوة الإسلاية في القرن الخامس عشر الهجري»، وكتاب د. محمد عمارة «الإسلام والمستقل»، وكتاب د. الدجاني عن «المستقبل برؤية مؤمنة مسلمة»، وكتابنا «أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة» وغيرها.

بينهم في درجة النجاح، ومع هؤلاء القادة يذهب معظم المثقفين.

ومذهب آخر وجد الصيد نافرًا من القفص فاستغنى عن الصيد، واحتفظ بالقفص يضع فيه من كائناته المألوفة ما يجده حاضرًا بين يديه، وفي هذا المذهب تقع جماعة لا حصر لعددها ممن ملأوا أوعيتهم من كتب التراث، وغضوا أنظارهم غضًا عن العصر بكل ما يضطرب به من قضايا ومشكلات فكرية، ومع هذه الجماعة تذهب عامة الناس من غير المثقفين.

ومذهب ثالث وجد الصيد نافرًا من القفص فحطم القفص، وجرى مع الصيد حيث جرى، وهؤلاء قلة قليلة لا تجد بأسًا في أن نمحو صفحتنا محوًا، لنملأها بثقافة العصر وحده كما هي معروفة في مصادرها، بغير تحريف ولا تعديل.

فمن ذلك ترى جماعتين من الجماعات الثلاثة، هما اللتان تصدتا للعصر: إحداهما بتعديله ليلائم قالبنا الموروث، والأخرى بغير تعديل فيه، ملقية في اليم القالب الموروث. وأما الجماعة الثالثة، فقد لاذت بالهروب في حصونها، فلا مواجهة بينها وبين العصر، ومن ثم فلنا أن نسقطها من حسابنا، برغم كثرة عددها، وبرغم أنها هي التي ظفرت بتأييد الجماهير.

وكذلك نستطيع أن نسقط من حسابنا – في موضوعنا هذا – تلك القلة القليلة التي وإن تكن قد شاركت العصر في مشكلاته الفكرية وقضاياه، إلا أنها قد شاركته كما يشاركه رجال الفكر من أصحاب الحضارة الغربية نفسها، فكأن هذه الجماعة «المستغربة» تنظر إلى الأمور بعين أوروبية أو أمريكية، وكل ما لها من انتماء إلى الثقافة العربية الحديثة هو أنها تكتب ما تكتبه باللغة العربية، ولعل أهم ما قامت به في صنيعها ذاك، هو أنها عرضت على الملة العربية ثقافة الغرب، لا عن طريق الترجمة

المباشرة، بل عن طريق تمثلها لتلك الثقافة ثم عرضها بأسلوب حي فيه روحها وشخصيتها، فلئن كانت الفئة الكبيرة الذي لاذت بالماضي بغير تعديل، قد خرجت من ميدان المواجهة بالفرار، فإن هذه الفئة الصغيرة التي دمجت نفسها في حاضر الغرب كما هو، قد خرجت هي الأخرى من ميدان المواجهة بالذوبان في عالم غير عالمهم.

وتبقى بين أيدينا جماعة واحدة، هي التي اضطلعت بالمواجهة الثقافية بكل ما في هذه الكلمة من أبعاد، وأعني تلك الجماعة التي تستقطب جمهور المثقفين، والتي جعلت همها أن تسوق ثقافة العصر ـ في مقولات الثقافة العربية كما عرفها التاريخ[90].

إن نظرتنا لا تخالف نظرة المفكر الكبير من ناحية المبدأ، ولكن قد تخالفه من ناحيتين:

1 – من ناحية التطبيق، فقد يعتبر هو طه حسين في جماعة الوسط، ونحن نراه أقرب إلى طرف الاستغراب، وإن كان في أواخر حياته قد عدل كثيرًا من موقفه.

وقد يرى هو مثل رشيد رضا وحسن البنا ومحمد عبد الله دراز، وأمثالهم من جماعة التراث، مع أننا نسلكهم في دعاة الوسطية.

2 – من ناحية التعبير، فقد اعتبر العصر هو «الصيد» الذي يُطلب ويُنشد، والتراث أو الماضي مجرد «قفص» أي وعاء مهمته الاحتواء والحجز، فليس له أي قدرة

---

(90) انظر كتابه «ثقافتنا في مواجهة العصر» (ص 15، 16)، طبع دار الشروق، بيروت.

على العطاء.

وأحسب أن الإنصاف يقتضي أن نعطي للتراث حقه، كما فعلنا مع العصر.

على أن الدكتور – وجل من نشأوا في أحضان الثقافة الغربية – لم يميزوا بين الإسلام والتراث، أي بين ما هو وحي إلهي وما هو فكر إنساني. فالأصل أن الإسلام بعقائده وشعائره وشرائعه وقيمه وأخلاقياته الثابتة بقرآنه وسنته، أعلى من التراث، فهو الميزان الذي يحتكم إليه المختلفون، والنور الذي يهتدي به المتحيرون.

دعوى التصادم بين التفكير المستقبلي والتفكير الديني:

ومن الكتاب العلمانيين من يزعم أن التفكير الديني بطبيعته يصطدم بالتفكير المستقبلي، لما يحمل في طياته من خطر يهدد قيمًا كثيرة مرتكزة على أساس ديني: فحين يفكر الإنسان المعاصر في المستقبل يتجه ذهنه في الأغلب إلى تلك الكشوف العلمية والتكنولوجية التي يوسع بها نطاق معرفته بنفسه، وبالعالم، وسيطرته عليهما، وطابعها هو الاتجاه إلى تأكيد قدرة الإنسان وانتقاله التدريجي من مرحلة قبول الطبيعة على ما هي عليه، إلى مرحلة تغييرها وتشكيلها وفقًا لأغراضه، مما يؤدي به على منافسة الطبيعة، وإحداث تحول جذري في مسارها.

مثل هذا الجهد العلمي والتكنولوجي يتخذ في عالمنا المعاصر – في نظر هؤلاء العلمانيين – طابعًا يؤدي إلى التصادم مع كثير من القيم الدينية.

فالعلم يسير الآن في أول الطريق المؤدي إلى كشوف تقف على مدخل تلك المنطقة المحظورة التي كانت من قبل وقفًا على التفسير الديني وحده. والتفكير المستقبلي في العالم يؤدي مباشرة إلى توقع التحكم في المخ البشري ومختلف القدرات

الإنسانية، وإلى أطفال الأنابيب، وتخليق الحياة الصناعية، والتحكم في جنس المواليد، بل وفي صفاتهم الجسمية والنفسية والعقلية. هناك - إذن - قوى مخيفة توشك على الانطلاق من داخل مختبرات العلماء، وهي قوى لا تقتصر على التحكم في الطبيعة المادية، بل تسعى على التحكم في الطبيعة البشرية بدورها. وكل اتجاه إلى التفكير في مستقبل هذه التطورات، يثير بالضرورة حساسيات ومخاوف لا حصر لها. فالمستقبل يحمل في طياته احتمالات مزعجة، تؤدي إلى زعزعة قيم ظلت مستقرة ومريحة زمنًا طويلًا[91].

هذا ما قاله أحدهم عن التفكير الديني وموقفه من احتمالات المستقبل، وهو تحامل واضح على التفكير الديني وحده، على حين نجد كثيرين من العلماء والأدباء والفلاسفة والمفكرين اليوم، في بلاد التقدم العلمي والتكنولوجي نفسها، يتوجسون خيفة من هوس التكنولوجيا، وجنون البيولوجيا، وغلو الإنسان في الدأب على تغيير خلق اللَّه في الكون، وفطرة اللَّه في الإنسان. وهو ما يتنادى الكثيرون من العقلاء في العالم اليوم لمحاولة تفاديه، قبل أن يقع، والتخفيف من ويلات وشرور ما قد وقع بالفعل.

وقد أطلق بعض المهتمين صيحة: «يا سكان الأرض اتحدوا»[92] أي لتفادي الخطر الواقع والمتوقع على هذا الكوكب وأحيائه.

ويؤكد الدكتور زكي نجيب محمود في كتابه «تجديد الفكر العربي» أنه «مؤمن بأنه لا مندوحة لنا عن أن نزيل التعارض القائم اليوم في أركان الدنيا جميعًا، بين

---

(91) انظر: «الصحوة في ميزان العقل» للذكتور فؤاد زكريا (ص 72).

(92) عنوان كتاب لأستاذ عصام الدين حواس.

العلم الذي يتقدم بخطوات كخطوات الجبابرة، وقيمة الإنسان التي تنهار بوثبات كوثبات الشياطين»[93].

والدكتور قسطنطين زريق – وهو رجل مسيحي مصنف في القوميين التقدميين – يتجه هذا الاتجاه في كتابه «نحن والمستقبل» فيتحدث عن «مشكلات التقدم» الذي أخذت البلاد المتقدمة تحس بما جر عليها من مشكلات متفاقمة، وأضرار وأخطاء متضخمة، وما يتعرضون له من مساوئ وشرور. وقام فريق من رجال الفكر وأرباب المسؤولية ينبهون ويحذرون، ويدعون على السعي الجاد السريع لتدارك الخطر، و«كبح انطلاق التقدم» كي لا يؤدي في النهاية إلى تخلخل الحضارة الإنسانية. ونقل عن العالم الفرنسي «رينيه ديمون» قوله: إن جميع الدلائل تدل على انهيار حضارتنا انهيارًا تامًا محتمًا خلال القرن الحادي والعشرين إذا لم نصلح أساليبنا! وأشار الدكتور زريق إلى ما قام به فريق «ناري روما» حول «المأزق الذي تعانيه الإنسانية» نتيجة التقدم العلمي والتكنولوجي. وما أصدره الباحثون المتخصصون المكلفون من تقرير يحمل نُذُرًا تشاؤمية مرعبة، أو على الأقل خليقة بإثارة القلق البليغ لما تكشف عنه من تحديات للبشرية في حاضرها ومستقبلها القريب.

ومن أهم الاستنتاجات العامة التلخيصية التي توصلوا إليها قولهم: «إذا ظلت الاتجاهات الحاضرة – في نمو سكان العالم، والتصنيع، والتلويث، وإنتاج الغذاء، واستنزاف الموارد – قائمة دون تعديل، فإن الإنسانية ستبلغ حدود النمو على هذا الكوكب خلال المائة السنة المقبلة. وأرجح ما سيحصل هبوط فجائي وغير قابل

(93) «تجديد الفكر العربي» (ص 287)، طبع دار الشروق، بيروت.

للضبط في السكان وفي القدرة الصناعية»[94].

ومثل هذه التحذيرات كثير، يظهر في كتب وتقارير وبحوث شتى، في أكثر من بلد. وقد نشرت الصحف من عهد قريب خبرًا عن وثيقة خطيرة وقعها (1500) عالم، منهم (99) تسعة وتسعون من حملة جائزة نوبل، تحذر من خطر استخدام العلم والتكنولوجيا – دون ضوابط – على البيئة والإنسان[95].

التعلق بالنموذج النبوي والصحابي:

ويرى بعض دعاة العلمانية: أن فكة الدين في حد ذاتها تقف حائلًا دون التحليق في المستقبل، والتطلع إلى غد أفضل، وتطوير الحياة إلى ما هو أحسن وأمثل. لأنها دائمًا مشدودة إلى الوراء[96]، إلى عصر نزول الوحي، واتصال السماء بالأرض، وبروز الجيل الأول الذي تخرج في مدرسة النبوة، وهو جيل الصحابة، أفضل أجيال الأمة في نظر المتدينين، لأنه الجيل القرآن الرباني المحمدي، الذي لم يُعرف لرسول من الرسل مثله، إيمانًا وعلمًا وعملًا وبذلًا وجهادًا في سبيل اللَّه[97]، وهو الذي جاء في مدحه الحديث: «**خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**»[98].

---

(94) انظر: «نحن والمستقبل» (ص 48، 49، 151) طبع دار العلوم للملايين، بيروت، طبعة أولى.

(95) صحيفة الشرق القطرية – يناير سنة (1993م).

(96) انظر «الصحوة في ميزان العقل» للدكتور فؤاد زكريا، فصل «الأصالة والمعاصرة» (ص 92) وما بعدها.

(97) انظر: فصل «جيل قرآني فريد» من كتاب «معالم في الطريق» للشهيد سيد قطب.

(98) الحديث متفق عليه من حديث ابن مسعود، وعمران بن حصين وغيرهما. انظر الحدثين برقم (1646)، و (1647) من «اللؤلؤ والمرجان».

حاجة البشر إلى نموذج

وهنا ألفت النظر إلى نقطتين مهمتين:

الأولى: أن البشر لا يتعلمون من المبادئ النظري وحدها، ولكنهم في حاجة إلى نموذج بشري تتجسد فيه المبادئ النظرية، والقيم الروحية، والمثل الأخلاقية المجردة، يكون لهم أسوة، يقتدون بها فيهتدون.

فالبشر ليسوا فلاسفة تجريديين، يتبعون مبدءًا مثاليًا يؤمنون به، دون أن يروه محسًا منظورًا، أمامهم في الحياة الواقعية.

لهذا اقتضت حكمة اللَّه تعالى أن يضع أمام الناس نماذج بشرية عملية ليقتدوا بها فيهتدوا، تتمثل في رسل اللَّه عليهم الصلاة والسلام. واقتضت حكمته - بالنسبة للرسالة الخاتمة - أن يضع أمامهم نموذجين حيين ملموسين: نموذجًا فرديًا، ونموذجًا جماعيًا.

أما النموذج الذي وضعه اللَّه تعالى أمام الفرد، ليتمثله ويتخذه إمامًا وأسوة، فهو محمد رسول اللَّه ﷺ، الذي جعل اللَّه في سيرته منارًا لسلوك المؤمنين في شتى جوانب الحياة.

يقول اللَّه تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 21].

ومن فضل اللَّه على عباده أن جعل في سيرته الجامعة متسعًا لكل أنواع الاقتداء في مراحل الحياة المختلفة، وجوانبها المتنوعة.

فالشاب والشيخ، والعزب والمتزوج، وذو الزوجة الواحدة وصاحب الأكثر من زوجة، والأب والجد، والحاكم والمحكوم، والغني والفقير، والمسالم والمحارب،

والمنتصر والمنكسر، كل يجد في حياته وسيرته مجالًا للقدوة[99].

أما النموذج الآخر الذي جعله أُسوة للجماعة، فهو جيل الصحابة في عصر النبوة والراشدين.

فهذا جيل هيأه اللَّه لتلقي رسالة الإسلام مباشرة على يدي صاحبها المبعوث بها، فاستقبلها بعقله وقلبه وإرادته، وعاش فيها، وعاشت فيه، وسرت في كيانه العقلي والنفسي والعملي مسرى الدم في العروق، فحسن فقهه لها، وعمق إيمانه بها، وزكت نفسه بتعاليمها، وصلح عمله في رحابها، وصدق جهاده لنصرتها.

فكان هذا الجيل أفقه الناس لروح الإسلام، وأصدقهم عملًا به، وأسرعهم للبذل في سبيله، وأكثرهم غيرة على حرماته، وجهادًا لإعلاء كلمته.

وهو الذي حفظ لنا القرآن في الصدور وفي السطور، وروى لنا السنن أقوالًا وأفعالًا وتقريرات، ونشر دين اللَّه في الآفاق، بالأعمال قبل الأقوال، وبالأخلاق قبل الأوراق. وربى الشعوب على حبه والإيمان به، والعمل بأحكامه. وهي مهمات عظمى، انفرد بحملها دون سائر الأجيال، وهي أبعاء تنوء بها الجبال.

ولا غرو أن أثنى اللَّه عليه في كتابه[100]، وأنشى عليه الرسول في أحاديثه، وأثنت عليه الأمة بعد ذلك في مأثوراتها، وسجل التاريخ فضل بأحرف من نور.

ومن هنا لا نعجب إذا رنا المسلم ببصره إلى النموذج الأول، المثل الأعلى للفرد،

---

(99) انظر كتاب «الرسالة المحمدية» للعلامة سليمان الندوي بتقديم محب الدين الخطيب، نشر المكتبة السلفية.

(100) في أواخر سورة الأنفال (من الآية: 72 – 75)، و سورة التوبة (من الآية: 88، 89)، وآخر سورة الفتح (الآية: 29)، وسورة الحشر (الآية: 7 – 9)، وغيرها من سور القرآن.

وهو الرسول الأكرم الذي بعثه اللَّه ليتمم مكارم الأخلاق، ووصفه بأنه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4]، ليتخذ منه الأسوة والهداية في حياته كلها. ورنت الجماعة ببصرها كذلك إلى الجيل الأول، الجيل الرباني، القرآني، المحمدي، ليتخذ منه أسوة في حسن فهم الدين، وصدق اليقين بما عند اللَّه، والتناصح في اللَّه، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر والمرحمة، والتعاون على البر والتقوى، والجهاد في سبيل اللَّه، وتقديم مصلحة الإسلام على كل مصلحة شخصية.

والنقطة الثانية: أن وضع هذا النموذج أو ذاك أمام الفرد المسلم أو الجماعة المسلمة، لا يعني أن نهتدي به في كل تفصيلات الحياة، وجزئياتها المتغيرة، وعلاقاتها المتطورة.

إنما الواجب والمشروع هو وضع النموذج نصب الأعين، لتهتدي بهداه، وتقتبس من سناه، وتنهل من فضائله، وتغترف من معين قيمه ومبادئه، وتشرب روحه العالية المشرقة فيما تأخذ وما تدع.

وقد كان الصحابة عامة، والراشدون خاصة، أعظم الناس تأسيًا واقتداءً برسول اللَّه ﷺ، وحرصًا على اتباع سنته، واقتفاء سيرته، ولم يمنعهم ذلك أن يبتكروا أشياء اقتضاها زمانهم وتطور حياتهم، ومصلحة دينهم ودنياهم، مثل جمع القرآن في مصحف، وجمع الصحابة على حرف واحد من أحرف القراءة السبعة، وتدوين الدواوين، وتمصير الأمصار.

ونجد رجلًا مثل عمر بن الخطاب - الرجل الثاني في الإسلام في نظر جمهور الأمة - يستحدث أشياء لم تكن في عهد النبوة، ولا في عهد أبي بكر، وهي التي يعدونها «أوليات عمر»، فهو أول من مصر الأمصار، ودون الدواوين، وكتب

الناس على قبائلهم، وفرض العطاء لكل مولود في الإسلام، وأول من استقضى القضاة في الأمصار، وأول من كتب التاريخ[101].

بل نجد الصحابة خالفوا ما كان عليه الأمر في حياة النبي ﷺ، عملًا بما تقتضيه السياسة الشرعية الحكيمة، من جلب المصالح، ودرء المفاسد، وتحقيق أكبر منفعة لأكبر عدد من الناس بقدر المستطاع.

ولهذا وقف عمر أرض السواد ولم يقسمها كما قسم النبي ﷺ خيبر، والتقط عثمان ضوال الإبل، ولم يكن يلتقطها النبي ﷺ وضمن على الصناع، ولم يكونوا يضمنون في عهد النبوة.

وهذا لا يعتبر في الحقيقة مخالفة، بل فعل النبي عليه الصلاة والسلام ما هو أصلح للأمة في زمنه، وفعل خلفاؤه الراشدون ما هو أصلح للأمة في زمنهم. كما قال ابن قدامة في تعليل فعل عمر في الأرض.

ولو كان الإسلام يكره الابتكار في شئون الحياة ما رغب الرسول الكريم في ذلك بقوله: «**من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها، وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء**»[102].

وهذا هو المنهج الذي يريده الإسلام: الاتباع في أمور الدين، والابتداع في أمور الدنيا. وكذلك كان أفضل أجيال المسلمين. فلما انحرف المسلمون عن النهج

---

(101) انظر «سيرة عمر بن الخطاب» لابن الجوزي، نشر دار إحياء علوم الدين بدمشق (ص 75 – 79).

(102) رواه مسلم في كتاب «الزكاة» من حديث جرير بن عبد الله برقم (1017). وكرره في كتاب «العلم» في «صحيحه».

الصحيح للإسلام، عكسوا المشروع، وقلبوا الموضوع، فابتدعوا في شؤون الدين وجمدوا في أمور الدنيا والحياة.

والمسلمون في خير قرون هذه الأمة، وهي القرون الثلاثة الأولى – برغم يقينهم بفضل عصر النبوة والراشدين – لم يمنعهم ذلك أن يطوروا من علوم الدين، ويخترعوا في علوم الدنيا، فنشأت مدارس الفقه والتفسير والكلام، ومدارس اللغة والنحو، ودونت علوم الدين واللغة.

ثم انفتح المسلمون على العالم من حولهم من الهنود والفرس واليونان، فترجموا الكثير من كتبهم ومعارفهم إلى العربية، وعكفوا عليها درسًا وبحثًا، فشرحوا غامضها، وكملوا ناقصها، وصوبوا خاطئها، ورتبوا مشوشها، وهذبوا وحوروا، وأضافوا وغيروا، وابتكروا علومًا جديدة، مثل الجبر والمقابلة، وتركوا بصماتهم على القديم، في الهندسة والطب، والفيزياء والكيمياء، وشتى العلوم والرياضيات، التي كانت تعتبر كلها شُعبًا من «الفلسفة» أو «الحكمة».

بل اعتبروهم مبتكري المنهج العلمي التجريبي، الذي يفخر به الغرب، وينسبه إلى «روجر بيكن»، وسميه «فرنسيس بيكن»، وهما إنما اقتبساه من الحضارة العربية الإسلامية، كما اعترف بذلك كثير من المنصفين من مؤرخي العلم، أمثال «بريفولت»، و«جوستاف لوبون»، و«جورج سارتون»[103].

---

(103) بريفولت في كتابه «بناء الإنسانية»، ولوبون في كتابه «حضارة الغرب»، وسارتون في كتابه «تاريخ العلم». وانظر: «مناهج البحث عند مفكري الإسلام واكتشاف المنهج العلمي في العالم الإسلامي» للدكتور علي سامي النشار (ص 382 – 385) ط. دار المعارف الثانية. و «شمس العرب تسطع على الغرب».

المهم أنهم لم يعتبروا ذلك منافيًا للاعتزاز بعصر- «النموذج» الأول، واتخاذه أسوة، بل اعتبروا ذلك من استلهام روحه، والسير على هداه.

استنباطات مردودة:

لقد استنبط بعض الباحثين المعاصرين من حديث: «**خير القرون قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**» مقولة غريبة، مضمونها: أن الإنسانية التي يحتضنها الإسلام تتقدم نحو ما هو أسوأ، لا نحو ما هو أفضل، وأن هذا التقدم إلى الأسوأ حتمي لا رادّ له، وفقًا لهذا الحديث وأمثاله.

ولهذا يُرجح أن هذه الأحاديث موضوعة مصنوعة، إما لتبرير ما حدث بالفعل، إذا فرضنا أن الواضعين هم مسلمون فعلًا، وإما لتوجيه مسيرة الإسلام في طريق اليأس، إذا فرضنا أن الواضعين منافقون[104].

والحق أن الحديث صحيح متفق على صحته بين علماء الإسلام، لم يطعن عالم سنّي ولا معتزلي - فيما أعلم - في سنده أو متنه، بل ذكر ابن حجر والسيوطي وغيرهما من أئمة النقل أنه من المتواتر[105].

فاعتبار هذا الحديث موضوعًا: اتّهام للأمة كلها بالجهل والغباء، وترويج الباطل، واجتماعها على الضلالة طوال تلك العصور، وهذا مدخل لنسف الدين كله.

---

(104) انظر: «أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث» للدكتور فهمي جدعان (ص 21) وما بعدها، طبع المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت،.

(105) انظر: «نظم المتناثر في الحديث المتواتر» للكتاني، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، حديث رقم (241).

أما ما فهمه الباحث الفاضل من الحديث، وما رتَّبه عليه من نتائج، فهو غير مسلَّم له.

فالحديث إنما دلّ على فضل الجيل الذي تلقَّى عن رسول اللَّه ﷺ، وتربّى في حضانة النبوَّة، وشاهد ما لم يشاهده غيره من آيات اللَّه، ومن هدي رسول اللَّه، وحمَّله القدر من المهمات مالم يحمله غيره، ثم الجيل الذي تتلمذ على هؤلاء الأصحاب، واقتبس من مشكاتهم، واقتفى آثارهم، والجيل الثالث الذي سار على دربهم واتبعهم بإحسان. فرضي اللَّه عنهم ورضوا عنه.

ولا يشك دارس منصف أن «الإشعاع الروحي» لهذه الأجيال القريبة من عهد النبوة الخاتمة، كان من القوة والعمق والسعة، بحيث لا يلحقه جيل آخر، وهذا في الجملة لا في التفصيل، وفي أمر الدين والتقوى لا في أمر الحياة والعلم والعمران. فهذه قد تتفوق فيها الأجيال اللاحقة على الأجيال الأولى المفضَّلة في الالتزام الديني.

وقد بشّر الرسول ﷺ أمته أنهم سيرثون ممالك كسرى وقيصر، وسينفقون كنوزهما في سبيل اللَّه، وأنهم سيملكون المشرق والمغرب يومًا، وأن الرخاء سيبلغ مدىً لا يكاد يجد ذو المال يومها من يقبل منه الصدقة، وأن الأمن سيستتب حتى إن المرأة تخرج وحدها من الحيرة بالعراق حتى تطوف بالبيت الحرام، لا تخاف إلا اللَّه، وأن أرض العرب ستعود يومًا مروجًا وأنهارًا.

فهل يعتبر هذا كله «تقدمًا إلى الأسوأ»؟!

إن أي قارئ غير متعصب ولا متعسف للتاريخ يعلم أن الخلفاء الراشدين بعد رسول اللَّه ﷺ طوّروا كثيرًا من أمور الحياة، وأدخلوا عليها تحسينات وإضافات لم

تكن في عصر النبوة، وهم الذين أمرنا أن نتبع سنتهم، ونعـضَّ عليهـا بالنواجـذ، فهي امتداد للسنة النبوية المطهّرة.

وبعد عصر الراشدين وجدنا المسلمين في عهد الأمويين والعباسيين، يبتكـرون ويضيفون أشياء لم تكن في العصر النبوي ولا العصر الراشدي، أقرّهم عليها علماء الأمة، وانعقد الإجماع على مشروعيتها.

ويكفي أن تم فيها استبحار علوم الدين واللغة، وتدوينها وتأصيلها، وظهـور المدارس العلمية والفكرية في شتى أنواع العلوم والآداب، ثم اقتباس علوم الأمـم الأخرى، عن طريق الترجمة، ثم تدارسها وانضاجها وتهذيبها، وإعمال يد التعـديل والتحسين والتحوير فيها، بالحذف والإضافة والتغيير، والتقديم والتـأخير، حتـى تنسجم مع المزاج العام للأمة، وتتواءم مع دينها وقيمها وثقافتها، وتجد لها مكانًا في حياتها العقلية والوجدانية والاجتماعية. ثم ابتكار علوم جديدة كاملـة، لم يعرفهـا السابقون.

وفي هذا الإطار نشأت الحضارة الإسلامية الفارعة الرائعة، ثابتة الأصول، باسقة الفروع، وارفة الظلال، مباركة الثمار.

ولم يتوقف المسلمون عـن إبـداع هـذه الحضـارة في مختلـف مجالاتهـا، وشـتى فروعها، بدعوى أن هنـاك أحاديـث تغـل أيـديهم، أو تقيـد أرجلهـم، أو تشـل تفكيرهم، محتّمة عليهم «التقدم إلى الأسوأ»!!

صحيح أن الأجيال المسلمة التي صـنعت هـذه الحضـارة الشـمَّاء، لم تكـن في شفافية جيل الصحابة وتلاميذهم من الناحيـة الإيمانيـة «الروحيـة» – وهـو أمـر اعترف به الجميع – ولكن هذا لم يقف حـائلًا أمـام تفـوقهم العلمـي، وتقـدّمهم

الحضاري، وجهادهم الأخلاقي. بل وضعوا أخلاقيات ذلك الجيل المثالي نصب أعينهم، باعتباره مثلًا إنسانيًا أعلى، وبذلك يجمعون بين الحسنيين أو يحاولون ذلك على الأقل: حسنة الإبداع الحضاري المادي، وحسنة السمو الروحي، والترقي الإيماني والخلقي.

على أن هناك أحاديث أخرى تبين فضل الأجيال اللاحقة، وتنوِّه بصبرها وثباتها في عصور الفتن والأزمات التي يُمتحن فيها أهل الإيمان، وحملة رسالة الإسلام، ويغدو القابض على دينه فيها كالقابض على الجمر. حتى ذكر الحديث أن للعامل فيها أجر خمسين! قيل: منَّا أو منهم يا رسول اللَّه؟ قال: «**بل منكم**»(106).

كما صحَّت أحاديث كثيرة تبشِّر بغدٍ مشرق، ومستقبل زاهر لدعوة الإسلام، ومُلك واسع لدولته.

وصحَّ الحديث كذلك أن اللَّه يبعث في كل مائة سنة من يجدد للأمة دينها. وبذلك يتجدد أملها، ويقوى رجاؤها، في صلاح الحال إذا فسد، وقوة الدين إذا ضعف، واستقامة الأمر إذا أعوج.

استمرار الخير في سائر أجيال الأمة:

وإيمان المسلم بفضل القرن الأول أو القرون الأولى لا يعني أن باب اللَّه قد أغلق أمام سائر القرون إلى يوم القيامة، وأن الأجيال القادمة محرومة من استباق الخيرات، فقد حازتها تلك القرون، ولم يعد أمامها إلا الفتات إن بقي الفتات.

---

(106) الحديث رواه أبو داود في «سننه» كتاب الملاحم برقم (4341)، والترمذي في التفسير (3060)، وقال: حسن غريب، وابن ماجه في الفتن (4041) كلهم عن أبي ثعلبة الخشني.

بل الحق الذي لا ريب فيه أن باب اللَّه تعالى مفتوح للجميع إلى أن تقوم الساعة، واستباق الخيرات مأمور به لجميع الأمة في كل العصور: ﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [المائدة: 48]. وكم ترك الأول للآخر، وكم في الإمكان أبدع مما كان. وفي الحديث الشريف: «**مثل أمتي كالمطر، لا يُدرى أوله خير أم آخره**»(107).

يقرر الشراح هنا: أنه كما لا يحكم بوجود النفع في بعض الأمطار دون بعض، فكذلك لا يحكم بوجود الخيرية في بعض أجيال الأمة أو أفرادها دون بعض من جميع الوجوه، وفي هذا إيماء إلى أن باب اللَّه مفتوح، وطلب الفيض من جنابه مفسوح. فكل طبقة من طبقات الأمة لها خاصية وفضيله توجب خيريتها، كما أن كل نوبة من نوبات المطر لها فائدتها في النشوء والنماء لا يمكن إنكارها. فإن الأولين آمنوا بما شاهدوا من المعجزات، وتلقوا دعوة الرسول بالإجابة والإيمان، والآخرين آمنوا بالغيب، لما تواتر عندهم من الآيات، واتبعوا من قبلهم بالإحسان. وكما أن المتقدمين اجتهدوا في التأسيس والتمهيد، فالمتأخرون بذلوا وسعهم في التقرير والتأكيد، فكل ذنبهم مغفور، وسعيهم مشكور، وأجرهم موفور.

قالوا: والمراد هنا وصف الأمة قاطبة – سابقها ولاحقها، أولها وآخرها – بالخير، وأنها ملتحمة بعضها ببعض، مرصوصة كالبنيان، مفرغة كالحلقة التي لا

---

(107) رواه الترمذي عن أنس في أبواب الأمثال برقم (2873)، وقال: حسن غريب، ورواه أحمد والبزار والطبراني عن عمار بن ياسر، قال الهيثمي: ورجال البزار رجال الصحيح، غير الحسن بن قزعة، وعبيد بن سليمان الأغر وهما ثقتان، وفي عبيد كلام لا يضر (10/ 68)، ورواه البزار والطبراني في «الأوسط» عن عمران ابن حصين، وقال البزار: لا يروي بإسناد أحسن من هذا (10/ 68)، ورواه ابن حبان في «صحيحه» عن عمار «الإحسان» (7226)

يدرى أين طرفاها[108].

والمسلمون في كل مكان وزمان يردّدون هذا القول بوصفه حديثًا نبويًا: «الخير فيّ وفي أمتي إلى يوم القيامة»، ومعناه صحيح، وإن لم يرد بهذا اللفظ.

فقد صحَّت جملة أحاديث عن عدد من الصحابة تؤكد أن «**لا تزال طائفة من هذه الأمة قائمة على الحق حتى يأتي أمر الله**»[109]، وهو ما يتفق مع منطوق القرآن الكريم: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: 181].

كما صحت أحاديث تبشر بمستقبل مشرق للإسلام، تعلو فيه كلمته وتنشر دعوته، وتتسع دولته[110].

سنن وقواعد مطردة:

ولقد وضح لدى الأجيال المسلمة طوال القرون: أن ثمة مبادئ راسخة، وقواعد ثابتة، وسننًا مطردة، من محكمات القرآن والسنة، يحتكم إليها الجميع، منها:

1 – أن لكل عمل ثمرة، ولكل جهد جزاء، في الدنيا قبل الآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: 30]، ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ

---

(108) انظر: «مرقاة المفاتيح، شرح مشكاة المصابيح» للعلامة علي القاري (5/ 658) وقد نقلناه بتصرف.

(109) صح من حديث معاوية والمغيرة بن شعبة، وثوبان وعقبة بن عامر وجابر وعمر وأبي هريرة وعمران بن حصين وقرة بن إياس ﷺ. انظر: «صحيح الجامع الصغير» الأحاديث من (7287) إلى (7296).

(110) انظر في ذلك: «الأحاديث الصحيحة» للألباني – الجزء الأول – الأحاديث رقم (1 – 6)، نشر المكتب الإسلامي، بيروت.

﴿بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: 170].

2 – أن الجهاد في اللَّه، سواء كان جهادًا روحيًا أم ماديًا، لا يهدره اللَّه أبدًا: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: 69].

3 – أن من نصر اللَّه نصره اللَّه، ومكن له في الأرض، وإنما ينصر اللَّه بالإيمان وعمل الصالحات، والصالحات: كل ما تصلح به الحياة روحيًا وماديًا، وما يصلح به الإنسان فرديًا وجماعيًا. يقول تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ 40 ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: 40، 41]، ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ [النور: 55].

4 – **العناية بحقوق الإنسان:**

ومن سمات عصرنا البارزة: أنه عصر حقوق الإنسان، فلا معاصرة لنا إذا لم نعترف بهذه الحقوق في دساتيرنا، ونرعها في مؤسساتنا، ونزرع احترامها في عقول أبنائنا، وضمائر شعوبنا وحكامنا. وبخاصة حقوق المستضعفين والمسحوقين.

حقوق الإنسان الفرد لدى المجتمع.

حقوق الشعوب لدى الحكام.

حقوق الفقراء لدى الأغنياء.

حقوق الأُجراء لدى الملاك.

حقوق العمال لدى أرباب العمل.

حقوق النساء لدى الرجال.

حقوق الأطفال لدى الآباء.

إلى غير ذلك من الحقوق، التي تحفظ للإنسان آدميته، وتصون حرُمته وكرامته، وتؤمنه على ممتلكاته وخصوصياته، وتحميه من مخالب الأقوياء أن تفترسه، ومن أقدامهم الغليظة أن تدوسه.

فهل تضيق أصالتنا الإسلامية والعربية ذرعًا بهذه الحقوق؟ أم ترحب بها وتنشرح بها صدرًا؟

الواقع أن هناك بحوثًا ودراسات جادة أثبتت - بمنهج علمي صحيح - أن هذه الحقوق - في جملتها - ليست من مستحدثات العصر، ولا من مبتكرات الغرب، وأن الإسلام سبق بإقرارها، بل بالدعوة إليها والمحافظة عليها، واعتبار الفرد والمجتمع والدولة حراسًا على رعايتها، بوصفها واجبات شرعية، يثاب من فعلها، ويعاقب من تركها.

لا أملك في دراستي هذه أن أتحدث عن هذه الحقوق وموقف الإسلام منها، بل أحيل على بعض الكتب التي صدرت في هذه القضية، مثل:

حقوق الإنسان بين الشريعة الإسلامية والفكر القانوني الغربي للدكتور محمد فتحي عثمان.

«حقوق الإنسان بين الإسلام وإعلان الأمم المتحدة» للشيخ محمد الغزالي.

«حقوق الإنسان في الإسلام» للدكتور علي عبد الواحد وافي.

«الإسلام وحقوق الإنسان» للدكتور القطب محمد طبلية.

«الإسلام وحقوق الإنسان» للدكتور محمد عمارة.

وأكتفى هنا بعرض خلاصة مما انتهى إليه بحث الدكتور فتحي عثمان، في كتابه الموثق بالأدلة الشرعية والتاريخية من مصادرها الأصيلة. وفيها بين أن تقرير حقوق الإنسان في الإسلام، استوعب الاتجاهات الوضعية كلها قديمًا وحديثًا وتفوق عليها، مؤكدًا ما يلي:

(أ) أن تقرير حقوق الإنسان في الإسلام قد شمل الحقوق الشخصية الذاتية والفكرية والسياسية والقانونية والاجتماعية والاقتصادية، وأكد الحريات العامة المتنوعة والمساواة.

(ب) وقد شمل تقرير حقوق الإنسان في الإسلام: الرجال والنساء اللاتي هن «شقائق الرجال» كما ورد في الحديث، والأطفال وهم «الذرية الضعاف» الذين تمتعوا بالرعاية الشرعية من جانب كل المؤسسات القائمة في المجتمع الإسلامي: الأسرة والجماعة والدولة.

(جـ) كما شمل تقرير حقوق الإنسان في الإسلام: المسلمين وغير المسلمين في داخل دولة الإسلام وخارجها، لأن «البر» في الإسلام إنساني عالمي: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: 8].

(د) وحقوق الإنسان الشاملة في الإسلام هي في ضمان الفرد والجماعة والدولة على السواء، لأن «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» هو واجب هؤلاء جميعًا: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ

﴿ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [التوبة: 71].

(هـ) ومما يتجلى فيه تفوق حكم اللَّه على وضع البشر بالنسبة لتقرير حقوق الإنسان وحرياته العامة: أن تقرير الحقوق في الإسلام يستند إلى «عقيدة الإيمان» وهي في عمقها وشمولها ودوامها لا تقارن بفكرة «القانون الطبيعي» أو «العدالة» أو «العقد الاجتماعي» أو «المذهب الفردي» ... إلخ. فـ «اللَّه» مصدر تقرير الحقوق في دين الإسلام حقيقة ثابتة، لا مجرد افتراض غامض، والعقيدة في اللَّه ترتكز إلى أصولها في الفكر والنفس. ولها آثارها الواسعة الشاملة المستمرة في سلوك الفرد والجماعة والدولة.

(و) إن استناد تقرير الحق إلى اللَّه ﷻ وشريعته يؤدي إلى اقتران الحق بالواجب، واقتران حق الفرد بحق الجماعة، واقتران الحقوق الفكرية والسياسية بالحقوق الاجتماعية والاقتصادية. فكل ما حو حق للفرد هو واجب على غيره: سواء أكان الغير فردًا آخر أم الجماعة أم الدولة، وهكذا لا مجال في المجتمع الإسلامي للأنانية والفردية، ففي الحديث: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»[111]، «**لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض**»[112]، والقرآن يعبر في جلاء أن الأخوة ثمرة الإيمان الصحيح: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: 10].

(ز) بل إن تقرير حقوق الإنسان من قبل خالق الإنسان ﷻ قد جعل إحقاق الحق واجبًا على صاحب الحق نفسه، كما هو واجب على الذي عليه الحق، فعلى

---

(111) متفق عليه عن أنس - «اللؤلؤ والمرجان» (28).

(112) متفق عليه عن جرير وابن عمر - نفسه (44 و45).

صاحب الحق أن يطالب به ويحرص عليه، ويناضل لأجله إن كان المانع مماطلًا أو باغيًا أو غاصبًا. ففي الحديث: «**من قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون عرضه فهو شهيد، ومن قتل دون ماله فهو شهيد**»(113)، والمؤمنون أفرادًا وجماعة ودولة في أي مكان مأمورون بمظاهرة صاحب الحق في طلبه والنضال لأجله: ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: 9]. والمؤمن مأمور ألا يفرط في حقوقه، وبخاصة ما يمس إنسانيته وفكره واعتقاده، حتى ولو اضطر إلى ترك الأرض التي عاش فيها وارتبط بها وألفها.

وهكذا تكون الهجرة أو «الالتجاء» بالاصطلاح القانوني المعاصر واجبًا على المضطهد وليست حقًّا فحسب. كما أن من واجبه النضال والجهاد حيثما كان.

(ح) والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في شريعة الإسلام يعني إحقاق الحق ومقاومة البغي، وهو التزام فذٌّ يفرضه الإسلام على الفرد والجماعة والدولة، وهو واجب ديني شرعي يرتكز إلى العقيدة، ويتغلغل إلى أعماق ضمير المؤمن، وهو مقرون بالإيمان نفسه في عدد من آيات القرآن.

(ط) وإن الإسلام ليرتضي في مجال الاجتهاد والسياسة الشرعية كل ما يتوصل إليه التفكير والتجربة من إجراءات محكمة مخلة ناجعة، لضمان حقوق الإنسان ومنع المساس بها والاعتداء عليها. وفي حدود ما ورد من نصوص القرآن والسنة وما وقع في تاريخ الإسلام، يمكن القول بوجود الضمانات التالية:

---

(113) رواه أبو داود (4772)، والترمذي (1412) وقال: حسن صحيح، والنسائي (4049)، وابن ماجه (2580) كلهم عن سعيد بن زيد.

(ى) واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الملقى على عاتق الفرد والجماعة والدولة في الإسلام، والذي يعني حراسة هؤلاء جميعًا للحق في مختلف صوره ومدافعتهم للبغي في مختلف صوره. ومن الوسائل التي عرفها تاريخ الإسلام في هذا الصدد وظيفة المحتسب بالنسبة للحكومة، ودعوى الحسبة بالنسبة للأفراد، ويمكن إدخال مراقبة رعاية حقوق الإنسان في نطاق كليهما.

(ك) كذلك كان من اختصاص والي المظالم – وهو من اختصاص القاضي قبل ذلك وعندما لا يوجد مثل هذا المنصب – النظر في تعدي الولاة على الرعية وأخذهم بالعسف في السيرة. فهذا من لوازم النظر في المظالم الذي لا تقف على ظلامة متظلم، فيكون لسيرة الولاة متصفحًا، وعن أحوالهم مستكشفًا، ليقويهم إن أنصفوا، ويكفهم إن عسفوا، ويستبدل بهم إن لم ينصفوا.

(ل) ولا مانع أن يقوم قضاء داخل الدولة الإسلامية على أعلى مستوى لحماية حقوق الإنسان: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: 59].

(م) ومن الإجراءات المعروفة في شريعة الإسلام وتاريخه «التحكيم»، لمحاولة الإصلاح بين طرفي النزاع، سواء أكان ذلك على المستوى الداخلي أو العالمي. والنص صريح في مجال الأسرة ولا مانع من تعديته إلى الجماعة داخل الدولة والجماعة الإنسانية الدولية، يقول تعالى: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآ﴾ [النساء: 35].

(ن) والإسلام يشرع الجهاد لحماية حقوق الإنسان، ومنع استضعافه، والبغي على ذاته وحقوقه: ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا﴾

[النساء: 75].

(س) وحق الهجرة والالتجاء مكفولة للفرد الفرار بنفسه وعقيدته وفكره من الاضطهاد، وكل ما يمكن أن يستحدث من وسائل لحماية الحق وكفالة العدل ومقاومة البغي فإن الإسلام يرتضيها ويحتويها[114].

هذه هي حقوق الإنسان في الإسلام، واضحة بينه موثقة من أصوله ومصادره.

ولكن الذي نؤكده هنا: أن الإسلام يمتاز عن الفكر الغربي بما قرره من التوازن بين الحقوق والواجبات. فالإنسان في حضارة الغرب يركض أبدًا وراء ما هو له، ولا يهتم كثيرًا بما هو عليه. والإنسان في الإسلام مشدود إلى ما يجب عليه أولًا، الإنسان في نظر الغرب مطالب سائل، وفي نظر الإسلام مطالب مسئول. وفرق كبير بين الموقفين، فرق بين من يقول: ماذا لي؟ ومن يقول: ماذا علي؟ فالأول يدور حول حاجته، والآخر يدور حول قيمة أخلاقية. ومن خلال أداء الواجبات ترعى الحقوق؛ إذ ما من حق لفرد أو جماعة إلا كان هو واجبًا على غيره. فحقوق المحكومين إنما هي واجبات على الحكام، وحقوق المستأجرين إنما هي واجبات على المالكين. وحقوق الأولاد إنما هي واجبات على الوالدين، وهكذا.

* * *

الفصل الرابع

(114) انظر: «حقوق الإنسان بين الشريعة الإسلامية والفكر القانوني الغربي» للدكتور فتحي عثمان (ص 174 - 192)، طبع دار الشروق، القاهرة.

ملاحظات ونتائج

- تواصل الحوار.
- ملفات يجب أن تغلق.
- لا مبرر للعلمانية في أرضنا.
- تأكيد كرامة الإنسان.
- المحرقة التي تعد لدعاة الإسلام.
- فلسفة تجفيف المنابع.
- حتى المسجد لم يعد خادمًا للإسلام.
- التدين الذي يروجون له.
- من الرابح من وراء ذلك؟

* * *

أريد أن أذكر في هذا الفصل بعض الملاحظات أو الوصايا التي أرى من الخير أن يتفاهم عليها دعاة الأصالة ودعاة المعاصرة، إن كان لا بد من بقاء هذا التصنيف أو التقسيم:

- **تواصل الحوار:**

من هذه الملاحظات: ضرورة تواصل الحوار بين المخلصين من الفريقين،

لتصحيح المفاهيم، وإزالة الشبهات، وتقريب الشقة، ومحاولة توسيع مساحة المتفق عليه، وتأكيد التعاون فيه، والمناقشة الجادة في المختلف فيه، والعمل على تضييقه، والاجتهاد في الوصول إلى الصواب أو الصحيح أو الأصح، ما وجدنا لذلك سبيلًا، وإلا وسعنا التسامح والتماس الأعذار للمخالفين وإن اعتبرناهم نحن مخطئين.

وقد أمر القرآن بحوار المخالفين في الدين من أهل الأديان الكتابية الأخرى، على أن يكون الحوار بأحسن الأساليب وأمثلها، وأن يركز على مواضع الاتفاق لا على نقاط الاختلاف. يقول تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [العنكبوت: 46].

فإذا كان هذا هو الموقف الواجب مع المخالفين في الدين، فمن باب أولى أن يتبع مع المخالفين في الفكر.

● **ملفات يجب أن تغلق:**

كما أرى من الخير أن نفرغ من بعض القضايا التي حسمها البحث العلمي الجاد، فينبغي أن نغلق ملفاتها، ولا نظل نلف وندور حولها دون طائل، فالأعمار أثمن وأقصر من أن تضاع في تحصيل الحاصلات، وتوضيح الواضحات، ونشر النشارة!

انظر إلى قضية مثل قضية «الربا»، كيف ثارت منذ أكثر من نصف قرن، حين كانت الرأسمالية الغربية في أوجها، وكان المنهزمون فكريًا ونفسيًا من أبناء المسلمين يحاولون أن يجدوا لهم سندًا من داخل الشرع يبررون به استباحة الربا،

الذي جلبه الاستعمار في ركابه إلى ديار المسلمين.

تمحكوا بالتفريق بين ربا الجاهلية والربا الحاضر، أو بين ربا الانتاج وربا الاستهلاك، أو بين الأضعاف المضاعفة - كما حاولوا أن يفهموه من سورة آل عمران - وربا الفائدة المحدودة (10٪) أو نحو ذلك.

وقام العلماء الواعون الصادقون من رجال الشريعة ورجال الاقتصاد، وردوا هذه الدعاوي كلها، بمنطق علمي موضوعي رصين، من أمثال: أبي الأعلى المودودي، ومحمد عبد الله دراز، ومحمد عبد الله العربي، وعيسى عبده إبراهيم، ومحمود أبو السعود، وأحمد عبد العزيز النجار، وغيرهم.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل دخل المسلمون في دور إيجاد البدائل الإسلامية عن المؤسسات الغربية الربوية، فقامت المصارف الإسلامية، ومؤسسات الاستثمار الإسلامي، وطفقت تنمو وتتسع، وتتطور إلى الأحسن.

ثم فوجئنا بمن يردنا خمسين سنة إلى الوراء، لنناقش من جديد ما فرغنا من مناقشته وانتهينا منه نظرًا وعملًا!

ثم انظر المعركة التي بدأت في عهد الشيخ محمد عبده مع فرح أنطون صاحب مجلة «الجامعة» عن «الإسلام والسلطة الدينية»، والتي حسمها الأستاذ الإمام - حين جعل من أصول الإسلام الستة في إرساء العلم والمدينة: «قلب السلطة الدينية» لا إقامتها وتشييدها - لم تزل تظهر بين حين وآخر، كأنها أمر جديد.

أكد الأستاذ الإمام محمد عبده: «أن الإسلام هدم بناء تلك السلطة، ومحا أثرها، حتى لم يبق لها عند الجمهور من أهله اسم ورسم، ولم يدع الإسلام لأحد بعد الله ورسوله سلطانًا على عقيدة أحد، ولا سيطرة على إيمانه، ولم يجعل لأحد من أهله أن

يحل ولا أن يربط لا في الأرض ولا في السماء، بل الإيمان يعتق المؤمن من كل رقيب عليه فيما بينه وبين اللَّه سوى اللَّه وحده. وليس لمسلم - مهما علا كعبه في الإسلام - على آخر - مهما انحطت منزلته فيه - إلا حق النصيحة والإرشاد».

وعن الحاكم قال الأستاذ الإمام: «إن الدين لا يخصه في فهم الكتاب والعلم بالأحكام بمزية، ولا يرفع به إلى منزلة، بل هو وسائر طلاب الفهم سواء، إنما يتفاضلون بصفاء العقل وكثرة الإصابة في الحكم، ثم هو مطاع ما دام على المحجة، ونهج الكتاب والسنة، والمسلمون له بالمرصاد، فإذا انحرف عن النهج أقاموا عليه، وإذا اعوج قوموه بالنصيحة، والإعذار إليه، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. فإذا فارق الكتاب والسنة في عمله وجب عليهم أن يستبلوا به غيره. فالأمة هي التي تنصبه، وهي صاحبة الحق في السيطرة عليه، وهي التي تخلعه متى رأت ذلك من مصلحتها، فهو حاكم مدني من جميع الوجوه»[115].

هذا ما قاله الأستاذ الإمام، وقاله بعده العلامة الشيخ محمد بخيت المطيعي مفتي مصر في زمنه في رده على كتاب علي عبد الرازق «الإسلام وأصول الحكم»، كما قرره العلامتان: محمد الطاهر بن عاشور شيخ علماء تونس، ومحمد الخضر حسين شيخ الأزهر بعد في مصر، في نقضهما للكتاب المذكور.

وهو ما أكده بعد ذلك كل من كتبوا عن نظام الحكم أو النظام السياسي من العلماء أو الدعاة أو القانونيين، وهم جم غفير[116].

---

(115) انظر: «الأعمال الكاملة» للإمام محمد عبده (3/ 285 - 287).

(116) انظر على سبيل المثال ما كتبه الأساتذة: محمد يوسف موسى، ومحمد الصادق عرجون، وحسن البنا، وعبد القادر عودة، وسيد قطب، ومحمد الغزالي، ومحمد سليم العوا، ومحمد أبو

ومع هذا الوضوح الحاسم، أو الحسم الواضح، في هـذه القضـية لا يـزال تيـار التغريب – يمينيه ويساريه – يبدئ فيها ويعيد.

وآخر ما قرأناه في ذلك ما كتبه المفكر الماركسي المعروف الأستاذ محمـود أمـين العالم، في مقاله في صحيفة «الأهرام» عن «الإسلام السياسي والسلطة». وكـان ممـا قاله: «هناك ما نطلق عليه اسم «التيار الإسلامي المعتدل» ومـا نطلـق عليـه اسـم «التيار المتعصب»، وما نطلق اسم «التيار الإرهابي». عـلى أنـه بـرغم هـذا التنـوع والاختلاف، فهناك موقف يكاد يوحـد هـذه التيـارات جميعًـا، هـو الموقـف مـن السلطة. فهي جميعًا تدعو إلى «السلطة الدينية». ولا تكتفي بالقول بتطبيق الشريعة الإسلامية أو باستلهامها. بل تـدعو دعـوة صريحـة جهـيرة إلى أسـلمة السـلطة، وأسلمة المجتمع، في مختلف ممارساته وأساليب حياته. بل لعـل بعضـها يـدعو إلى أسلمة المعرفة والعلوم كذلك. لا العلوم الاجتماعية فحسب، بـل العلـوم الدقيقـة كذلك، كالعلوم الطبيعية»[117].

وطالما كتبنا وكتب الكاتبون: أن الإسلام لا يدعو إلى «سـلطة دينيـة» بـالمعنى الكهنوتي الذي عرفه المجتمع الغربي، بل يدعو إلى «سلطة إسـلامية» يمعنـى أنهـا سلطة مدنية تختارها الأمة، تعتمـد المرجعيـة الإسـلامية في تشـريعها وتوجيههـا وسياستها الداخلية والخارجية.

فارس، وعبد الحميد متولي، وأخيرًا ما كتبه خالد محمد خالد «الدولة في الإسلام» معتـذرًا عـما كتبه قديمًا في كتابه «من هنا نبدأ».

(117) انظر الأهرام في 9/ 12/ 1992، صفحة «الإرهاب والتطرف في فكر المثقفـين وهـو الـذي علق عليه الأستاذ فهمي هويدي في مقاله الأسبوعي في 15/ 12/ 1992 تحت عنوان «لكي لا نخوض المعركة الغلط».

ولكن الأستاذ العالم ينكر ذلك أيضًا، ويعتبر الدعوة إلى أسلمة السلطة، وأسلمة المجتمع، أمرًا منكرًا! ويعتبر ذلك من ابتداع ما سماه «الإسلام السياسي»، فماذا يريد من وظيفة للإسلام في الحياة؟ ماذا يفهم من تطبيق الشريعة الإسلامية، إذا لم تسلم السلطة، ويسلم المجتمع؟

لقد كان الأستاذ العالم وزملاؤه أيام عز الماركسية يدعون إلى «مركسية السلطة» وإلى «مركسية المجتمع»، فلماذا يريد للإسلام أن يبقى متفرجًا، وهو يرى السلطة والدولة والمجتمع والثقافة، تسير في اتجاه آخر، قد يكون إلى اليمين، أو اليسار، ولكنه غير اتجاه الإسلام؟!

وماذا ينكر من أسلمة المعرفة[118]؟ أو أسلمة العلوم الاجتماعية؟ وهل يعني ذلك إلا أسلمة الثقافة؟ ومعنى أسلمة الثقافة: تحريرها من سلطان الثقافة الغربية حتى تكون ثقافة أصيلة معبرة بحق عن ضمير الأمة وعقلها. ولا ريب أن العلوم الاجتماعية أوصل ما تكون بثقافة كل أمة، وخصوصيتها الحضارية.

وهذا يقتضي أن تنظر إلى العلوم الإنسانية والاجتماعية نظرة جديدة، لا تقلد الغرب فيها تقليدًا أصم أعمى، ولا ترفض كل شيء عنده، بل نعيد قراءتها بعقلية واثقة متفتحة غير مبهورة، من خلال منظورها الخاص، ومسلماتها الدينية والفكرية، فتأخذ منها وتدع، وترجح وتضعف، بمنطق علمي موضوعي، بعيد عن التعصب للقديم، أو التعبد للحديث.

---

(118) انظر ما نشره «المعهد العالمي للفكر الإسلامي» في واشنطن عن قضية «أسلمة – أو إسلامية – المعرفة» بأقلام: المرحوم د. إسماعيل الفاروقي، ود. عبد الحميد أبو سليمان، ود. عماد الدين خليل، ود. طه جابر العلواني.

وبذلك تنشأ مدارس عربية إسلامية جديدة في هذه العلوم، مكافئة للمدارس الغربية المختلفة فيها. وهذا لا يكون بمجرد إطلاق العناوين، بل بالبحث الدؤوب، والدراسة الجادة الصبور.

أما «أسلمة العلوم الطبيعية» فلا أعلم مسلمًا عاقلًا يدعو إلى ذلك إلا ما أشرنا إليه من قبل، من ربط هذه العلوم بالأساس النظري أو الفلسفي لهذا الكون، وأنه مخلوق للَّه، وأن قوانينه سنن للَّه فيه لا تتبدل، فليس ما يجري فيه من باب المصدقات، ولا هو من فعل الطبيعة العمياء، وإنما هو صنع اللَّه الذي أتقن كل شيء وقدره تقديرًا. وكذلك استخدام هذا العلم فيما ينفع الإنسانية لا فيما يضرها. أي ربط العلم بالإيمان والأخلاق.

وهل يضير العلم الطبيعي أن يقول من استخدمه ما قال سليمان حين جيء له بعرش بلقيس في لمح البصر، بواسطة «الذي عنده علم من الكتاب»، فقال: ﴿هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل:40]؟ أو يقول ما قال ذو القرنين عندما أقام السد العظيم: ﴿هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ [الكهف: 98].

يبدو أن تصور الكاتب لأسلمة السلطة، وأسلمة المجتمع، وأسلمة المعرفة، لا يمت بصلة إلى ما يدعو إليه تيار الوسطية الإسلامية، الذي هو التيار الأعمق جذرًا، والأقدم عهدًا، والأوسع انتشارًا.

فالتسوية بين التيارات التي ذكرها، ووصفها بالمعتدل والمتعصب والإرهابي، تسوية بين مختلفين أو مختلفات، كما تدل العناوين ذاتها.

● لا مبرر للعلمانية في أرضنا:

ومن الملفات التي يجب أن تغلق ما ذكره الدكتور كمال أبو المجد في ندوة

«الإسلام والعروبة» وهو: ملف العلمانية التي تفصل الدين عن الحياة والمجتمع، فقد نشأت في أرض غير أرضنا، وقوم غير قومنا، لظروف لا نظير لها عندنا.

إن الغرب نادي بالعلمانية ليواجه بها كهنوت الكنيسة الغربية التي وقفت مع الجمود ضد الفكر، ومع الجهل ضد العلم، ومع الملوك ضد الشعوب، ومع الأغنياء والإقطاعيين ضد الفقراء والكادحين.

ونحن لا توجد لدينا بابوية ولا كهنوت، ولا «رجال دين» ما حلوه في الأرض فهو محلول في السماء، وما عقدوه هنا فهو معقود هناك.

لقد بينت في دراسة لي أن العلمانية في الغرب لها ما يبررها من فكرها الفلسفي منذ عهد أرسطو الذي يرى أن اللَّه لا علاقة له بالعالم، لا يعلم فيه شيئًا، ولا يدبر فيه أمرًا، ومن فكرها الديني الذي يذكر ظاهر نصه مؤكدًا قسمة الحياة بين اللَّه وقيصر، وترك ما لقيصر لقيصر، وما للَّه للَّه!

أما العلمانية عندنا فهي ضد الدين، وضد فكر الأمة، وضد مصلحتها. وهي تجرد الأمة من طاقات هائلة كان يمكن أن تفجرها العقيدة والشريعة، لو كانت العقيدة هي الموجهة، والشريعة هي الحاكمة.

وقد جربت بعض البلاد الإسلامية العلمانية، وقهرت شعوبها على الخنوع لها، بسيف الجبروت، وسوط العذاب، بدعوى اللحاق بالغرب المتقدم، والعالم المتطور. فهل تقدمت وتطورت حقًّا؟

إن أبرز مثل لذلك هو تركية أتاتورك، التي قلدت الغرب في كل شيء، حتى في لبس القبعة، وتحريم الطربوش، ومنع الحجاب، وعطلت أحكام الشريعة القطعية حتى في الزواج والطلاق والميراث وشؤون الأسرة، وعزلت الأجيال عن تراثها

تمامًا حين ألغت الحرف العربي وفرضت الحرف اللاتيني، وقطعت الصلة بالعالم الإسلامي عامة، وبالعرب والعروبة خاصة، حتى اعتبرت الأذان بالعربية جريمة.

فماذا كانت النتيجة؟

لم تستطيع أن تقتلع جذور الإسلام، برغم حذفه من التعليم والثقافة والإعلام، وعاش معظم الشعب في صراع بين السطوح والأعماق، بين الجذور والأوراق، بين الماضي والحاضر بين العقيدة والواقع.

وانتهت تركية العلمانية إلى ما عبرت عنه كاتبة تركية بقولها: كنا أول دولة في الشرق، فأصبحنا آخر دولة في الغرب!

بل إن الغرب نفسه – برغم تهالك الدولة التركية على الارتماء في أحضانه والانتماء إليه – لم يعترف بتركية عضوًا في جسمه، وجزءًا من حضارته، ولهذا لم يقبلها في السوق الأوروبية المشتركة، وقال في ذلك المستشار الألماني بصراحة: إن تركية تنتمي إلى حضارة غير حضارتنا!

وبذلك جسدت تركية العلمانية قصة الغراب الذي حاول أن يقلد النسر، فلم يفلح أن يكون نسرًا، ولم يصلح أن يعود غرابًا!

- **تأكيد كرامة الإنسان:**

ومما ينبغي التفاهم عليه والتواصي به: تأكيد كل ما يرعى كرامة الإنسان، ويحترم فطرة الإنسان، وينمي خصائص الإنسان.

إن الحكماء والبصراء المنصفين من مفكري الغرب وجهوا النقد العنيف إلى حضارتهم، لأنها أعلت من شأن الجماد أو المادة، وهبطت بقيمة الإنسان.

فعلينا أن نؤكد ذلك ونتبناه، ونجعل من ثقافتنا الإنسانية واقعًا حيًا في أرضنا ومجتمعاتنا، ونمكن لها في حياتنا العقلية والوجدانية، حتى تؤدي دورها المطلوب في البناء والإعلاء.

لقد سقطت دولة الشيوعية في بلادها الأم، برغم ما تملك من طاقات علمية وتكنولوجية ضخمة، وما لديها من ترسانة عسكرية هائلة، بما فيها الأسلحة الاستراتيجية والنووية، وما عندها من موارد مادية وبشرية وفيرة.

ومع ذلك كله أنهار هذا العملاق الضخم، وهوى فجأة، وقبلها كان يهدد العالم كله بغزو أفكاره وفلسفته المادية.

وقد أبان هذا الانهيار أن ثقافته كانت هشة في حقيقتها، وإن كانت في ظاهرها ثقافة متماسكة لها فلسفتها في الوجود، وفلسفتها في المعرفة، وفلسفتها في القيم، وفلسفتها في تفسير التاريخ، وقد عبرت عن هذا كله مناهج، ومدارس وجامعات، وجند لخدمته علماء وأدباء ودارسون، وأجهزة إعلامية جبارة، ورصدت لترويجه ملايين بل بلايين الروبلات.

وما ذاك إلا لأن هذه الثقافة لم تلائم فطرة الإنسان، ولم تراع خصائص الإنسان، لأنها لم تعرف حقيقة الإنسان. نظرت إليه باعتبار أنه «كائن اقتصادي» فقط. ينتج ويستهلك. ولا روح له، ولا خلود له، ولا رسالة له وراء إشباع غرائزه الدنيا. ورأت أن «الإنسان يقوم وحده» في هذا الكون، لا رب يحكمه، ولا غاية من خلقه. وقد عبرت عن ذلك بقولها: «لا إله والحياة مادة»! ومن ثم كان الدين عدوًا لها، وكان الإلحاد ركيزتها.

وسقوط دولة الاشتراكية وذهاب ريحها، لا يعني أن الدولة العلمانية الليبرالية

في غرب أوروبا وأمريكا دولة قوية، إنها قوية في الظاهر، كما كانت الدولة الاشتراكية تبدو لنا للناس كذلك. ولكن السوس ينخر في كيانها من الداخل. وثقافتها لا تتناقض في جوهرها تناقضًا كبيرًا، مع الثقافة الاشتراكية، إن كليتهما تنبع من مصدر واحد هو العقل البشري المادي المحدود، ولا تفكر إلا في حاضر هذه الدنيا، ولا تتخذ من الوحي مصدرًا، ولا تعترف باللَّه حاكمًا، ولا مدبرًا. كلتاهما تستغنى بالأرض عن السماء، وبالعقل عن الوحي، وبالدنيا عن الآخرة، وبالإنسان عن اللَّه جل جلاله. ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: 7].

لقد عبر «ليوبولد فايس» «محمد أسد» عن ذلك بقوله: إن الحضارة الغربية لا تجحد اللَّه جحودًا صريحًا، ولكن ليس للَّه مكان في نظامها الفكري الحالي(119).

● المحرقة التي تعد لدعاة الإسلام!

إني ألمح في الأفق بوادر بل نذرًا خطيرة. ففي «غرف العمليات» في عواصم الغرب الكبرى، تعد الخطط المدروسة – والتي تغذيها جامعات وجماعات ومراكز بحوث أكاديمية علمية، وقد أنفق عليها عشرات بل مئات الملايين بسخاء – تعد هذه الخطط الاستراتيجية – كما يقولون – لحرب ضروس، هدفها ضرب هذا العملاق الذي تحرك بعد طول رقود أو حبس، وهو الإسلام الذي ظهر بقوة، وأثر بسرعة في الحياة الفكرية والسلوكية والاجتماعية والسياسية للمسلمين فيما يسمى «المد الإسلامي» أو «البعث الإسلامي» أو «الصحوة الإسلامية». الخطة الآن تهيأ – بل هيئت بالفعل – لضربه وسحقه، تحت عناوين مضللة أو مصطلحات هلامية

(119) من كتاب «الإسلام على مفترق الطرق» لمحمد أسد. ترجمة د. عمر فروخ.

غير محددة.

وذلك مثل عناوين «الإرهاب» و«التطرف» و«الأصولية» وليس المقصود هو ضرب التطرف ولا الإرهاب، فهم الذين مهدوا لهما السبل، وهم الذين قاوموا الفكر الإسلامي الذي يؤمن بالحوار والاعتدال، ولم يفسحوا له المجال ليعمل كغيره تحت مظلة القانون. حتى إنهم سمحوا للفكر الشيوعي – المناقض بصراحة لعقيدة الأمة – أن يعبر عن نفسه بصورة رسمية، ورفضوا كل الرفض أن يعطوا هذا الحق للإسلام، المعبر الحقيقي والوحيد عن ضمير هذه الأمة!

وحين دخل الإسلاميون معهم في لعبة الديمقراطية، واحتكموا إلى صناديق الانتخاب، وظهر أن الشعب قد اختارهم، كما في الجزائر، قطعوا الطريق عليهم، وتدخلوا بالقوة لإلغاء الديمقراطية كلها! وقد قال المفكر الكبير الأستاذ رجاء جارودي عندما شارك في ندوة «الثقافة العربية» بالدوحة: إن الغرب قد قسم المسلمين إلى صنفين: أخيار طيبين، وأشرار خبثاء. فالأخيار الطيبون الذين يخضعون لأوامر وتوجيهات البنك الدولي، وصندوق النقد الدولي. والأشرار الخبثاء هم الذين يرفضون ذلك.

ونقل عن أحد الأدباء الساخرين قوله: إن الشعب إذا صوت ضد الحكومة يجب أن يحل الشعب، لتبقى الحكومة!

قال جارودي: وهذا بالضبط ما حدث في الجزائر.

إن الديمقراطية مقبولة، بل مطلوبة، بل لازمة، إذا أتت بالعلمانيين واللادينيين، ولو بانتخابات مكشوف زيفها، أما إذا أتت بالإسلاميين، فالشعب لم ينضج بعد، والديمقراطية غير صالحة له. وقاتل الله النفاق!

إنها «محرقة» تعد بإحكام للصحوة بل للأمة الإسلامية، تديرها وترسم معالمها وخطواتها أيد خفية من هناك، من بعيد، وراء «الكواليس» وتنفذها أيد ووجوه عربية مسلمة، هي التي تظهر على خشبة المسرح.

إن هذا الهارد خطر ماحق، فلا بد من العمل الجاد المخطط لإعادته إلى القمم، كما كان لمدة قرن أو قرنين من الزمان. ولا بد من الاستعانة بكل القوى من يمين ويسار، وبكل الخصوم من غرب وشرق، وبكل من يهدد الهارد الإسلامي مصالحهم في الداخل والخارج، لمحاولة الإمساك به، طوعًا أو كرهًا، حتى ندخله القمقم: قمقم الغفلة والهمود وغياب الوعي.

ولا بد من إعادة النظر في الأدوات الثلاث الجبارة التي تصنع الأفكار والميول والأذواق والمشاعر، وهي: التعليم، والإعلام، والثقافة، وهي الأسلحة الفعالة في تلك الحرب الضروس التي بدأ بالفعل، بصورة وأخرى، وفي بلد وآخر.

• فلسفة تجفيف المنابع:

والفلسفة التي تقوم عليها هذه الأدوات أو هذه المؤسسات هي ما أسماه بعضهم بصراحة: سياسة «تجفيف المنابع» يقصدون: منابع التدين الإيجابي المتحرك المحرك. فكل ما يدعو إلى تعميق الإيمان برسالة الإسلام - بوصفه عقيدة وشريعة ومنهاج حياة - وكل ما يدعو المسلم إلى الاعتزاز به والغيرة عليه، والموالاة لأوليائه، والمعاداة لأعدائه، وكل ما يدل على أصالة المسلم واستقلال شخصيته، وتميزه فردًا، وتميز أمته بين الأمم، بوصفها «أمة وسطًا»، وكل ما يوحي بأستاذية الأمة وشهادتها على الناس، وكل ما يذكر بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنصيحة في الدين، والتواصي بالحق والصبر، وكل ما فيه حث على الجهاد

في سبيل اللَّه، ووجوب إعداد ما يستطاع من قوة لإرهاب عدو اللَّه وعدو الأمة، وكل ما يشير – ولو من بعيد – إلى وجوب الحكم بما أنزل اللَّه، ووصف من تركه بالكفر أو الظلم أو الفسوق، أو بها جميعًا، وكل ما يومئ إلى مقاومة الجور والانحراف، ولو بكلمة حق عند سلطان جائر، وكل ما يدعو إلى احتشام المسلمة والتزامها بالحجاب الذي فرضه اللَّه عليها بمحكمات النصوص من القرآن والسنة، وكل ما يدعو إلى قوامية الرجال على النساء، كما نص على ذلك كتاب اللَّه، وكل ما يحذر من غدر اليهود، وكيد الكافرين ... كل ذلك وأمثال خطر يجب أن يقاوم، ووباء يجب أن يحاصر.

وبعبارة أخرى يجب أن «تطهر!!» مناهج التعليم وكتبه، وبرامج الإعلام، وأدوات الثقافة والتوجيه والترفيه، من كل ما يتضمن تلك المعاني التي أشرنا إليها، وما شابهها.

بل يجب «تفريغ» تلك المؤسسات وأجهزتها المتنوعة من كل ما يوحي بأن الإسلام هو الحق، وما عداه باطل، وأنه صراط اللَّه المستقيم، وما عداه سبلٌ فيها هدى وضلال، وصواب وخطأ.

فإن أخطر ما يفرزه التدين – المشدود إلى القرآن والسنة وفهم سلف الأمة – أنه ينشئ عقلية تؤمن أنها تملك وحدها «الحقيقة المطلقة»! ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: 32]، وهذا أصل التعصب وجرثومته.

والمنهج المطلوب اتباعه في المرحلة الجديدة: أن نغرس في نفوس الشعب – وبخاصة الناشئة – ما سموه «نسبية الحقائق» فليست هناك حقيقة بإطلاق، إنما هناك حقيقة لدى هذا الشخص، أو في هذه البيئة أو في ذلك العصر. وقد تكون

هذه الحقيقة نفسها أسطورة زائفة لدى شخص آخر، أو في بيئة أخـرى، أو عصر آخر.

قد تقول باعتبارك مسلمًا: إن التوحيد حقيقة لا ريب فيها، دلت عليها الفطرة، ودل عليها العقل، ودل عليها الوحي.

ولكن النصراني يقول بالتثليث، وأن اللَّه ثالث ثلاثة.

والهندوسي يقول بتعدد الآلهة، وأن الإله قد يحل في بعض الحيوانات كـالبقرة أو بعض الجبال أو بعض الأنهار. فما الذي يجعل قولك أولى من قولهم؟ ودعواك أحق من دعاويهم؟ ودينك أحرى من دينهم؟

وقد ترى باعتبارك مسلمًا: أن محمدًا رسول اللَّه، وأن القرآن المنزل عليـه كـلام اللَّه، وأن الشريعة التي جاء بها من عند اللَّه.

ولكن هناك آخرون من أصحاب الأديان المخالفـة، أو ممـن لا يـدينون بـدين، يرفضون هذا كله، ويقولون في محمد وكتابـه ودعوتـه وشريعتـه أقاويـل أخـرى. ولكل رأيه ووجهته، وأدلته التي يستند إليها.

فلا داعي للغضب من هؤلاء، ولا للإنكار عليهم، فمن يدري: لعل مـا تحسـبه الحق الذي لا ريب فيه، يكون هو الباطل الذي لا ريب فيه!!!

وقد ترى - بحكم ثقافتك الإسلامية - أن بعد هذه الحياة الفانية حياة أخـرى، تنصب فيها الموازين، وتنشر فيها الدواوين، وتوفى كل نفس ما كسبت، وتكافأ بما عملت، ثوابًا أو عقابًا، جنة أو نارًا.

ولكن هناك آخرون ينظرون إلى الحياة الأخرى نظرة مغايرة، فيقولون بتناسـخ

الأرواح، أو ببعث روحي لا مكان فيه لنعيم حسي، ولا لعذاب مادي. بل يوجد من لا يؤمن بالآخرة ولا بالخلود قط، بل من لا يؤمن بالدين من أصله، ويراه أكذوبة اخترعها الأغنياء لإلهاء الفقراء، أو الحكام لتخدير المحكومين، ويرددون ما قاله الفيلسوف الملحد: ليس صوابًا أن اللَّه خلق الإنسان، بل الصواب أن الإنسان هو الذي خلق اللَّه!!

وليس الذي يقول مثل تلك المقولات من عوام الناس وأغبيائهم، بل من خاصة مثقفيهم وأدبائهم وفلاسفتهم، فكيف تعتبر قول هؤلاء باطلًا كله، وقولك أنت هو - وحده - الحق المبين؟!!

إن الذي يليق بك أيها المثقف العصري - أن تتسم برحابة الأفق، وتنظر إلى الحقائق - مهما كان مصدرها - باعتبارها أمورًا نسبية، تختلف باختلاف الزمان والمكان والإنسان.

هذا هو المقصود من المعركة الجديدة مع «الأصولية الإسلامية»: تجفيف المنابع! إنها الفلسفة «السوفسطائية» عادت من جديد. تريد أن تفرض نفسها على أمة الإسلام. وهي تملك سيف المعز وذهبه. وتملك ما لم يملكه المعز، ولم يكن ليحلم به، وهو: الأجهزة المقتدرة في التعليم والإعلام والثقافة!

والمعركة الكبرى اليوم في أكثر من بلد عربي: معركة التعليم، وتفريغه من كل ما ينشئ الروح الإسلامية، والعقلية الإسلامية، والنفسية الإسلامية، وتهيئة مناخ فكري ونفسي جديد، يقبل «التطبيع» مع اليهود، والخضوع لإسرائيل، والانحناء لهيمنة «النظام العالمي الجديد» كما يسمونه. بما يحمله من أحقاد علينا، وأطماع فينا، واستخفاف بنا، وإذلال لكرامتنا، كما لمسنا ذلك في كل قضايانا من قضية فلسطين

إلى قضية البوسنة والهرسك.

ولم يقف الأمر عند تفريغ المناهج والكتب من الإسلام الإيجابي المحرك، فقد يعوض المدرس المؤمن نقص المنهج ومقرر الكتاب، بما يبثه من روح وما يشيعه من فكر، وما يدل عليه من سلوك.

ولهذا كانت الخطوة اللازمة هي تفريغ المدارس والمعاهد والمؤسسات التعليمية من العناصر الإسلامية الملتزمة، وإقامة مذبحة كمذبحة القلعة المشهورة، لهؤلاء «الأصوليين» بإبعادهم عن التعليم كله، ليخلو الجو للمنافقين والوصوليين والعلمانيين، ليفسدوا في الأرض بعد إصلاحها، ويحولوا وجهة الجيل من المسجد إلى المسرح والسينما، ومن تلاوة القرآن إلى قراءة القصص، ومن الحماس للإسلام والجهاد إلى الحماس للكرة والنوادي، ومن احترام أهل العلم والتقوى والجهاد إلى تمجيد أهل الغناء، والرقص والتمثيل. وبذلك تختل القيم، وتضطرب الموازين.

والهدف من ذلك كله واضح جلي لكل ذي عيني: غسل مخ الجيل الحاضر، والأجيال القادمة، وصنع إسلام زائف لها، لا صلة له بإسلام القرآن والسنة، ولا بإسلام سلف الأمة، إسلام «تفصله» الحكومات على قدها، ويعمل فيه «مقص الرقيب» ما يشاء عمله من القطع واللصق، والحذف والإضافة، والتقديم والتأخير.

● حتى المسجد لم يعد خادمًا للإسلام:

بقي جهاز مهم لا يتبع الإعلام ولا الثقافة ولا التعليم، وهو المسجد، وقد كان فيما مضى هو الملاذ الوحيد الباقي لأحرار العلماء والدعاة، ليقولوا فيه كلمتهم، ويبلغوا دعوتهم، وخصوصًا المساجد الأهلية التي لا تخضع لهيمنة الحكومة،

وإشراف وزارات الأوقاف الرسمية.

ولكن الحكومات تنبهت إلى خطر هذه المؤسسة وتأثيرها على فكر الشعب ووجدانه، إذا تهيأ للمسجد عالم متمكن صاحب رسالة، إنه يستطيع أن يقنع العقول، ويوقظ المشاعر، ويبعث العزائم، ويحرك الجماهير في الاتجاه الذي يؤمن به، ويكون مدرسة دينية مستنيرة حرة الإرادة والفكر، تأخذ عنه وتتلمذ عليه، وفي هذا خطر جسيم.

فكان ما تواصت به وزارات الأوقاف والشؤون الدينية في عدد من البلدان التي اتخذت من الإسلام الإيجابي موقف الخصومة الصريحة، وهو: إبعاد العناصر المتحركة المحركة من المساجد، وجعل المساجد كلها تحت سلطان الدولة، أو دولة السلطان! وتعيين أئمة وخطباء لها يدورون في فلك الحكم، يمدحون ما يمدح، ويذمون ما يذم، وإن أمر بالمنكر ونهى عن المعروف، إن لم يكن اقتناعًا، فخوفًا وطمعًا.

وهنا اكتملت حلقات السلسلة أو الطوق الذي يطوق الفكر الإسلامي الراشد، الملتزم بهدى اللَّه تعالى، وهدى رسوله ﷺ.

● هل ينجحون؟!

ومع هذا أستطيع أن أقول بلا تردد: إن الإسلام أعمق جذورًا، وأقوى سلطانًا، وأعز نفرًا، وأكثر جندًا، مما يظن الظانون. وأنه - رغم هذا التخطيط الماكر، والكيد المبيت - ستظل هناك ألسنة صدق، وأقلام حق، وأيدي عطاء، ومصابيح هداية، ومفاتيح خير، وجند دفاع عن الإسلام، يظهرهم اللَّه من حيث لا يحتسب أحد، يحملون أمانة الكلمة، ويؤدون رسالة اللَّه: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر:

.[31

ولقد جرب الاستعمار، وجرب ورثته من الملكيات والجمهوريات - على اختلاف الاتجاهات الليبرالية والثورية - الدخول في معركة مع الإسلام ودعاته، واستخدموا ما يحل وما لا يحل من أساليب البطش والإيذاء، فشربت سياطهم الدم، ونهشت كلابهم اللحم، ودقت آلات تعذيبهم العظم، وقتل من قتل، وشرد من شرد، ونكل بمن نكل، ولكن الله تعالى أخرج الحي من الميت، وأبرز من الأجيال التي ربوها في حضانتهم، وظنوا أنهم صنعوها على أعينهم، «جيل الصحوة» الذي شرق وغرب، وأثبت وجوده في عالم الفكر، وعالم الجهاد، وعالم الاقتصاد، وعالم الدعوة، وعالم السلوك.

لا أمل إذن في انتصار تيار التغريب العلماني على الإسلام، وإن استعان بالخبرات العالمية، والمكايد الصليبية، واليهودية، والوثنية، المتربصة بالإسلام. وأنفق العشرات أو المئات من الملايين في معركته تلك، فهي معركة خاسرة في النهاية. ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [الأنفال: 36].

كل ما في الأمر أن المسيرة ستتعثر بعض الوقت، وأن الشهداء سيقطون في سبيل الله. وأن المحن ستظل تصقل الناس، وتميز الخبيث من الطيب، ولكن القافلة لن تتوقف، والعمل لن ينقطع، والفجر لن يموت، وإن طال الليل، واحلو لك الظلام. سنة الله التي لا تتخلف، مع الرسل والأنبياء وأصحاب الدعوات، وحملة الرسالات: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ 140 وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ﴿آل عمران: 140 - 141].

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة:214].

يستطيع هؤلاء أن ينجحوا في حالة واحدة: إذا حذفوا القرآن الكريم، فلم يعد تحفظه الصدور، ولا تتلوه الألسنة، ولا تحويه المصاحف! كيف وقد قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: 9].

وحذفوا كذلك البخاري ومسلمًا وسائر كتب الحديث، ودواوين السنة وكتب السيرة والمغازي من علوم الأمة.

وحذفوا أبا بكر وعمر وعثمان وعليًا وأبا عبيدة وخالدًا وطارق بن زياد وصلاح الدين وقطز ومحمدًا الفاتح وعبد القادر الجزائري وعمر المختار والخطابي وأمثالهم من ذاكرة الأمة.

وحذفوا أبا حنيفة ومالكًا والشافعي وابن حنبل وزيد بن علي وجعفرًا الصادق وجابر بن زيد، وابن حزم وابن تيمية والغزالي وغيرهم، وغيرهم من عقل الأمة.

وحذفوا ابن عبد الوهاب والسنوسي والمهدي والأفغاني ومحمد عبده، ورشيد رضا وحسن البنا والمودودي وسيد قطب والسباعي وغيرهم، وغيرهم من حياة الأمة.

وحذفوا وحذفوا وحذفوا ... إلى أن يحذفوا الأمة نفسها!!

وهيهات! إن هذه الأمة لن تموت[120]، لأنها أمة الرسالة الخالدة، إنها خاتمة

---

(120) انظر: فصل «هذه الأمة لن تموت» من كتابنا «من أجل صحوة راشدة» طبع المكتب

الأمم التي تحمل خاتمة الشرائع لخاتم النبيين، فهي باقية حتى يرث اللَّه الأرض ومن عليها.

بيد أن مما يجب تأكيده هنا: أن هذا المناخ المشبع بروح العداء الأسود للإسلام، والضغط المكثف على علمائه ودعاته، والمقاومة المستميتة لصحوته، المستخفة بماضيه وحاضره ومستقبله ... هذا المناخ المكفهر هو أعظم مولد للتطرف والعنف والإرهاب، والانفجارات المتنوعة الصور، المختلفة الأساليب، فإن العنف لا يثمر إلا عنفًا مثله أو أشد منه، والضغط إذا زاد لا يولد إلا الانفجار. هذا قانون من قوانين اللَّه في الخلق لا تمكن مقاومته.

ولا يكفي في إيقاف هذا الذي نسميه: التطرف أو العنف أو الإرهاب، أيًا كان سببه، وأيًا كان موقفنا منه، مجرد إصدار الفتاوى الرسمية، والدعايات الإعلامية، ونشر الكتب العلمانية، التي يضعون عليها ختم «التنويرية»، وإعلاء صوت التغريب واللادينية على صوت الإسلام الحق، بل هذا كله يزيد النار اشتعالًا، ويدفع لها بالوقود بعد الوقود.

وإذا استمر هذا الوضع، فإن المعركة ستكبر وتطول، لأنها ستكون مع الأمة قاطبة، وستفقد الأنظمة أساس شرعيتها أمام شعوبها، وستتسع المقاومة لهذا الكفر البواح، حتى تمسي الأمة كلها «جماعة إسلامية»!!

- **التدين الذي يروجون له:**

هناك نوع من التدين مباح، بل مطلوب ومرغب فيه، تدق له الطبول، ويحرق له

الإسلامي - بيروت.

البخور، وهو التدين الـذي ترعـرع في عهـود التراجـع والتخلـف، ثـم في عهـود الاستعمار من بعده، ثم في عهود الحكم العلماني الذي ورث الاستعمار.

إنه التدين الذي يروج الأساطير، ويخدر الإرادة، ويشل الفكر، ويجمد الحركـة، ويجمع الناس حول أضرحة الأولياء، وموالـد الأتقيـاء، ولا يـدخل في «السياسـة الملعونة» إلا إذا كانت سياسة الحكومة! لا يهتم فيه المتدين بأمر المسلمين، بل يقول: نفسي نفسي. فشعاره: دع الخلق للخالق، واترك الملك للملك! إذا سُئل عن منكـر شاع، أو ظلم استشرى، كان جوابه: أقام العباد فيما أراد!

إنه التدين الذي ترسم الحكومة خطوطـه، وتنسـج خيوطـه، وتصـنع دعاتـه، وتهيئ رعاته، فهو تدين «مستأنس» أليف، سلس ظريف، يسير في ركـاب الدولـة حيث سارت، ويدور معها كيفما دارت. إذا ادعت قال لهـا: صـدقت، وإن دعـت قال: آمين. المعروف ما عرفته، والمنكر ما أنكرته، فهي المرجع المأمون، بل المصـدر المعصوم!

يقوم هذا اللون من التـدين عـلى الجبريـة في العقيـدة، والشـكلية في العبـادة، والسلبية في الأخلاق، والمظهرية في السلوك، والجمود في الفكر، والتقليد في الفقه، والنفاق في السياسة.

لا يعتمـد في ثقافتـه عـلى المصـادر الأصـيلة الموثقـة، بـل جـل اعـتماده عـلى الإسرائيليات والحكايات، والرؤى والمنامات، والأحاديث الضعيفة بل الموضوعة، والروايات الواهية، والتفسيرات المردودة.

وإذا أخذ عن علماء العصر، فلا يولي وجهه شطر العلـماء العـاملين، مـن أهـل العلم والورع والاعتدال، وأهل الدعوة والتجرد والثبات، بل معتمد هـذا التـدين

المشبوه: هو علماء السلطة، وعملاء الشرطة، الذين جاء وصفهم في الحديث الشريف: «**يخرج في آخر الزمان رجال يختلون الدنيا بالدين، يلبسون للناس جلود الضأن من اللين، ألسنتهم أحلى من السكر، وقلوبهم قلوب الذئاب**»(121).

هذا التدين الفردي الانعزالي السلبي الهامد، هو الذي تتباكى الأقلام العلمانية اليوم على فوات عصره الذهبي، وانقضاء أيامه المشرقة، ويعتبرونه هو «الأصل» الذي طرأ عليه هذا التدين «الأصولي» الشرير!

وهو الذي يتنادون بضرورة إحيائه وبعثه من مرقده، وإطلاق العنان له ليصول ويجول، في المساجد والزوايا، والصحف والإذاعة والتلفاز، ومطاردة ذلك التدين «الجديد» الخبيث.

وأغرب من ذلك تلك المحاولات الماكرة من جماعة العلمانيين، لاعتبار فترة غياب الهوية، وتذبذب الأصالة، وظهور تيار التغريب، وهيمنته بالقوة والحيلة على أزمة التعليم والتوجيه والإعلام والتثقيف – طوال فترة الاحتلال وما أعقبه – اعتبار هذه الفترة بما أفرزته، وما خلفته هي الأصل والأساس، وما خلفها بعد ذلك يكون شذوذًا عن القاعدة.

وهذا مما لا ينقضي منه عجب العاجب: أن تكون فترة الاغتراب عن الهوية، والانقطاع عن الجذور، والارتماء في أحضاء الدخيل، والسير في ركاب الغازي – بعسكره وقيمه وفكره وثقافته – هي الأصل الأصيل والقاعدة المقررة. وإذا قدر

---

(121) رواه الترمذي في أبواب الزهد عن أبي هريرة (2406).

للأمة أن تصحو من سكرة، وتستيقظ من غفوة، تحاول أن ترجع إلى الذات، وتعود إلى الأصول، وتحيي ما مات من قيمها وآدابها، وتجدد ما بلي من ثقافتها وحضارتها، وتحكم ما حملت على تركه من دينها وشريعتها، أو تقوم ما أعوج من تفكيرها وسلوكها، قال لها قائلون: هذا فهم جديد على مجتمعنا، بل هذا فكر دخيل علينا، وربما كان وراءه أيد أجنبية تحركه من وراء ستار!

● **من الرابح من وراء ذلك؟**

وهنا سؤال يفرض نفسه، وهو: من الرابح الحقيقي من وراء هذه المعركة الشرسة ضد صحوة الإسلام ودعوته وحركته؟

بالتأكيد ليست هي أمة العرب ولا الإسلام. فإن الأمة لا تكسب باقتلاع جذورها، وتبديد طاقاتها، وتشتيت قواها الضاربة، وتمزيق شملها.

إن أمتنا هي الخاسرة بلا مراء، من وراء هذا الصراع المر الذي يدار لحساب غيرها بيقين.

إنها الخاسرة على كل صعيد: أخلاقي أو اقتصادي أو سياسي أو اجتماعي.

وخسارتها لأسباب معلومة لا تحتاج إلى تفلسف:

1 – لأنها إذا انفصمت عن دينها تصبح أمة بلا جذور، وإن أي شجرة تفصل عن جذورها لا يمكن أن تعيش. ومن المؤكد أن جذور هذه الأمة في دينها.

2 – ولأنها إذا ضعف دينها، ووهن انتماؤها للإسلام، وتمسكها به، فقدت المفجر الأول لطاقاتها المكنونة، وقدراتها المختزنة.

وقد عرفنا من قراءة التاريخ، واستقراء الواقع: ان الدين هو المحرك الأول

لأمتنا، والقادر على بعثها من الهمود، وإخراجها من الجمود والخمود. والدلة على ذلك أكثر من أن تُحصر.

3 – ومن ناحية أخرى، فإن الطاقات التي كان ينبغي أن توظف في سبيل البناء والتنمية والتقدم الحضاري، غدت توظف في الهدم لا البناء، وفي التفريق لا الجمع، وتغليب فئة على أخرى، أو معسكر على آخر. بل في تغليب الأقلية المغتربة على جمهور الأمة، وبهذا تتبدد الطاقات، وتهدر الإمكانات. بل تعمل في الطريق المضاد للهداف الحقيقية للأمة.

4 – وبعد ذلك كله، فإن هذا السراع المستمر بين عقيدة الأمة ومواريثها الدينية والثقافية – التي تعتبرها جوهر حياتها، ومبرر وجودها وبقائها، وبين القيم والمفاهيم الدخيلة عليها – لن يدع سفينتها ترسو على بر الأمان، بل ستظل تتأرجح وتضطرب أمام عصف الريح، وهيجان الموج، ومعاكسة التيار، مما يعرضها لأخطار لا يعلم عواقبها إلا اللَّه.

إن القضية خطيرة واللَّه، بل هي في غاية الخطورة، إذا تمت على ما أراد الذين خططوا لها، أو بقيت مصدرًا للاستنزاف الدائم، فهل من فئة من العقلاء تتنادى بتدارك الأمر وتفادى الخطر، وإطفاء الشرر، قبل أن يفلت الزمام، ويعز الخلاص؟

أرى خلل الرماد وميض نار ويوشك أن يكون لها ضرام
لئن لم يطفها عقلاء قوم يكون وقودها جثث وهام
فإن النار بالعودين تذكى وإن الحرب أولها كلام

إن الرابح الحقيقي من وراء هذا الجذب والشد، والجزر والمد، هو القوى المعادية لأمتنا، التي تحركها الأحقاد القديمة، والأطماع الجديدة، والمخاوف الدائمة، من

ظهور الإسلام مرة أخرى، في صورة أمة تملك القوة البشرية، والقوة المادية، والقوة الروحية، والموقع الجغرافي، والبعد التاريخي، والعمق الحضاري، ولديها من الحوافز ما ليس لدى أمة أخرى، وعندها ما تقدمه للبشرية الحائرة من كلمات اللَّه، وهداية السماء.

وفي مقدمة هذه القوى: إسرائيل، التي ستقر عينًا، وتطيب نفسًا، بما يجري بجوارها، من عزل الإسلام عن زمام القيادة، وتنحيته عن التوجيه والتأثير والتجميع والتجنيد، في حين تحرك هي شعبها باسم الدين، وتجمعهم على التوراة. وبهذا يدخلون المعركة معنا، ومعهم التوراة وليس معنا القرآن، ويتنادون باسم موسى، ولا نتنادى باسم محمد. ويقولون: الهيكل، ولا نقول: الأقصى! ويحترمون السبت، ولا نحترم الجمعة! فالدين عندهم شرف، وعندنا تهمة! ولا حول ولا قوة إلا باللَّه!

وإسرائيل اليوم في أسعد أوقاتها، فقد اتفقت مع الكثيرين ممن كانوا خصومها بالأمس القريب، على ضرب الصحوة الإسلامية. وغدت تعرض نفسها على كل القوة المعادية للإسلام لتتعاون معها في مواجهة «الأصولية الإسلامية» الناشزة[122].

هكذا وقفت مع الصليبية في الغرب، ومع الوثنية في الشرق، فهي عون للصربيين ضد أهل البوسنة والهرسك، وعون للهندوس ضد أهل جامو وكشمير.

وقد زار وزير خارجية إسرائيل «شمعون بيريز» الهند، وأعلن لهم بكل صراحة

---

(122) وقد برز هذا بوضوح أكثر وأصرح، بعد الاتفاق المشؤوم المسمى: «اتفاق غزة وأريحا».

استعداد بلاده للتعاون معها ووضع كل خبراتها وإمكاناتها ضد خصومها من الإسلاميين!

❊ ❊ ❊

خاتمة

● **محاور التقاء:**

أحسب بعد هذه الفصول أن هناك محاور يمكن أن يلتقي عليها المخلصون ممن يحسبون من دعاة الصالة، ومن يحسبون من دعاة المعاصرة. بحيث يتفق عليها الطرفان، يغلقون ملفات الجدل حولها.

(أ) فقد تبين لنا أن لا تناقض بين العروبة والإسلام في ثقافتنا، إلا أن تحرف العروبة حتى تكون ملحدة أو علمانية معادية للإسلام، أو يحرف الإسلام حتى يكون شعوبيًا معاديًا للعروبة.

(ب) كما تبين لنا أنه لا صراع في ثقافتنا بين العلم والدين، أو بين العلم والإيمان أو بين العقل والنقل.

فالعلم عندنا دين، والدين عندنا علم. والعلم دليل الإيمان، والإيمان ملاك العلم. العقل عند علمائنا أساس النقل، والنقل نفسه يشيد بالعقل، ويحتكم إليه، ولا تعارض عندنا بين صحيح المنقول وصريح المعقول.

(جـ) لهذا يجب أن نعمل جميعًا عى تكوين العقلية العلمية، وتطوير المؤسسات العلمية، وتهيئة المناخ العلمي، حتى تدخل الأمة عصر التكنولوجيا المتطورة بخطًا ثابتة.

كما يجب أن نعمل معًا في الوقت ذاته على إحياء معاني الإيمان، وتجديد أخلاق الإيمان، والوقوف في وجه تيار المادية واللادينية والإباحية.

(د) ومما تبين لنا كذلك أنه لا تعارض بين الأصالة الحقة والمعاصرة الحقة، إذا

فهمت كلتاهما على حقيقتها. فنستطيع أن نكون معاصرين إلى أعلى مستويات المعاصرة، وأن نبقى كذلك أصلاء حتى النخاع.

إنما تتعارض الأصالة والمعاصرة، إذا فهمت الأصالة على أنها الاحتباس الاختياري في سجن الماضي، والمعاصرة على أنها الدوران في رحى الغرب.

لهذا يجب أن نتفق على رفض اتجاهين متطرفين:

الاتجاه الأول: الذي ينتهي بالأصالة إلى الجمود والتحجر، ورفض كل جديد، ومقاومة التجديد في الدين، والاجتهاد في الفقه، والإبداع في الأدب، والابتكار في فنون الحضارة، وإبقاء كل قديم على قدمه. والتسوية بين وحي اللَّه تعالى وأفكار المسلمين، وإضفاء القداسة على تراث السابقين كله، ومعاداة كل نزعة إلى تطوير الحياة والمجتمع، وإن كانت على أسس إسلامية، وحظر الاقتباس من الآخرين، ولو كان نافعًا للمسلمين، غير مخالف لشريعتهم.

والاتجاه الثاني: اتجاه الذين ينحون بالمعاصرة نحو الفناء في الغرب، واتباع سننه «**شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلوه**»، ولا يكتفون بأخذ العلم والتكنولوجيا وحسن الإدارة والتنظيم منه، واقتباس كل ما تنهض به الحياة، مما لا يتعارض مع ديننا وقيمنا وشريعتنا، بل هم يصرون على نقل الأنموذج الغربي إلينا بكل عناصره ومقوماته، وبخاصة جذوره الفلسفية، ومفاهيمه الفكرية، ومجاليه الأدبية، وتقاليده الاجتماعية، وقوانينه التشريعية، ومؤثراته الثقافية.

إن كلا الاتجاهين مرفض، فأولهما يمثل الإفراط، والآخر يمثل التفريط، ولا خير في واحد منهما، إنما الخير في التوسط والتوازن.

(هـ) وقبل ذلك كله، يجب أن نشيع روح التسامح بين المختلفين، سواء أكان اختلافًا في الدين أم في المذهب، أم في الفكر أم في السياسة. وأن نفتح باب الحوار العلمي الراقي، الذي سماه القرآن «الجدل بالتي هي أحسن» مع التركيز على نقاط الالتقاء والاشتراك، لا مواضع التمايز والاختلاف، مستهدين بقول الله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: 125].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *